جائزة أفضل كتاب عربي في مجال الرواية - معرض الشارقة الدولي للكتاب 2015

رواية

الطبعة الثالثة

نزلاء العتمة

زياد أحمد محافظة

مكتبة نوميديا 96
Telegram@ Numidia_Library

فضاءات للنشر والتوزيع

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2013/10/3602

813.9
محافظة، زياد
نزلاء العتمة- زياد محافظة- عمان: دار فضاءات
الواصفات: /القصص العربية // العصر الحديث/

• أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
• يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-509-3

الطبعة الثالثة: 2016

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

نزلاء العتمة- زياد محافظة- الأردن

دار فضاءات للنشر والتوزيع - مركز الرئيسي

عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران

تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)

ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن

E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com

Website: http://www.darfadaa.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: نضال جمهور

الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

زياد أحمد محافظة

نُـزلاء العتمــة

روايـــة

الرواية الفائزة بجائزة أفضل كتاب عربي في مجال
الرواية ضمن جوائز معرض الشارقة الدولي
للكتاب 2015

الفصـــل الأول

"لستُ أبحثُ عن موت باهت، فحتى الموت أحبُ أن يكونَ شهيّ المذاق".

كانت تلك آخر عبارة رماها في وجوههم، قبل أن يعبر وحيداً نحو عالم فاتن.

أخذ الضوء يشحب أمامه شيئاً فشيئاً، بينما عيونهُ المجهدة معلقةٌ ببقايا نحيب جنائزي. أراد أن ينادي على أحد، أو يصرخ بأعلى صوته لكنه لم يقو على ذلك، نابت عن تلك الرغبة، سعلةٌ عميقةٌ خلخلت عظام صدره. لفّ رداءَ الصوف على كتفيه، ولملم شموعاً تذوب قربه بخجل، ثم عاد مرتبكاً ليتمدد في برودة القبر.

أحسّ، وهو يحشرُ نفسه في المستطيل المعتم، أن المكان قد ضاق عليه قليلاً، امتلأ جسدهُ عما كان عليه حين وري الثرى عصر يوم ممطر. راودهُ

شعورٌ وهو يمددُ ساقيه فوق التراب الرطب، بأن عليه أن يراقب وزنه جيداً، وألاّ يسمح لجسده أن يكتنز، ويبتلع ما تبقى من فضاء القبر.

تنهد بضيق، حاول أن يرفع رأسه، فارتطمت جبهته ببلاطة تسدُّ جانباً من سقيفة رخامية باردة، حينئذ لم يكن أمامه سوى وضع كفيّه على بطنه، والشرود في عتمة خانقة يعرفُ تفاصيلها جيداً.

لم يكن يفكر في الخروج، أراد المكوث ممدداً أطول فترة ممكنة، علّ ذلك يريحُ صدره من رطوبة منهكة جلبها معه، أو يتيح له النفاذ إلى جوهر الأشياء، لكن تحت إلحاح الفضيل وإصراره على أن يرافقه، خرج ليشارك الجميع مراسم استقبال قادم جديد. فمنذ أن صار جزءاً من هذا العالم الغارق في زئبقيته، والموغل في صمته وكآبته، وهو يتجنبُ قدر الإمكان، الاشتراك في طقوس استقبال القادمين من أعلى، كما اصطلح الجميع على تسميتهم.

ففي كل مرة يشاعُ فيها نبأ وصول قادم جديد، تنتفضُ المقابر، ويتهيأ الأموات لزائر يبعث الحياة عدة أيام، قبل أن يلفهُ الصمت ويبتلعه بشيء من المكر.

في مراسم كتلك، اعتاد أن يشغل نفسه بشيء ما، تفادياً للانخراط في حدث يتشارك في صنعه اثنان يقبعان على طرفي نقيض: أحياءٌ حزينون يودعون راحلاً هناك، وأمواتٌ قلقون يتهيأون لاستقباله.

حين يدبُّ الأمواتُ نحو الباب الذي سيدلفُ منه القادم الجديد، يكون مصطفى في آخر الصف، يركل حصى صغيرة تمتلئ بها زوايا المقابر، أو يجلس على حجر أملس يراقب ما يجري أمامه بغير اكتراث. ورغم حرصه على تجنب الاشتراك في مثل هذه الطقوس الخادعة، فإن رغبة الجميع في أن يكون بينهم، قد حسمت له هذا الأمر.

ظنوا في البداية أن تجنبه إياهم، ما هو إلا ضربٌ من الاستعلاء يمارسهُ قادمٌ لم يحكِ لأحد الكثير عن ماضيه، لكن تحت وقع فضولهم، لم يجد مفراً من الانخراط معهم. ورغم زجّه في أمر لا يألفه، يحاولُ قدر الإمكان تجنب "لحظة الانعطاف" كما أسماها ساخراً بينه وبين نفسه؛ تلك اللحظة التي يعهدُ بها الأحياء للأموات رعاية فقيدهم الذي ناولوهم إياهُ بحسرة.

في تلك اللحظة، يشعرُ الأمواتُ مجدداً بطعم الموت، بمذاقه الطريّ، وملمسه الرخو ورائحته التي لا يمكنُ نسيانها. فحين يهيلُ الأحياءُ آخر ذرة من التراب على الجسد المزرقّ في العالم العلوي، تكتملُ لدى أولئك الذين ينتظرون في الأسفل هيئة القادم الجديد؛ فتتشكل على مهل صورته وملامحه، والخوف القابع في وجهه، وحين ينفُضُ الأحياء أكفّهم من تراب

القبر ويستديرون عائدين بصمت جنائزي، تكون أكفُّ الموتى قد تدفأت بمصافحة القادم الجديد والترحيب به.

حدثُ اليوم لن يكون شيئاً مختلفاً، قال مصطفى في نفسه وهو يرى صفّاً من ممثلي الأموات يقفون مهلّلين للقادم المرتبك، الذي تبدو علاماتُ الخوف والاضطراب جليّةً على وجه. أضاف وهو يتطلع إلى ما يدور حوله: لعله الشعورُ ذاتهُ الذي ينتابُ الجميع في موقف كهذا.

هو حين قدم إلى هنا لم يشذَّ عن ذلك، لعل الفارقَ الوحيد بينه وبين من يشاركونه المقابر اليوم، أنه جاءهم دونما جلبة في الأعلى. ففي ذاكَ النهار الذي فارقَ فيه عالماً موحشاً، مَن رحبوا بقدومه لهذا العالم السفلي، كانوا أصدقَ وأنبلَ من أولئك الذين عجّلوا في موته، أو تذكروه، أو حتى تنبهوا له.

حين وصلهم، كان ضامرَ الجسد، خائرَ القوى، ليس بوسعه التعرف على هذا الكائن الذي صارهُ مؤخراً. كانت بقايا تراب ما تزالُ تلتصقُ بفمه وجبهته، بينما تجاهدُ حواسه لتستعيد شيئاً من عافيتها. بدا للجميع حينها وكأنهم يرون شبحاً أكثر من رؤيتهم قادماً اجتاز توّاً لحظة الانعطاف. وقتئذ جفل الأمواتُ من هيئة هذا القادم الشاحب، فالجسد النحيل المثقل بالحكايا قد تبقّع بالزرقة واكتسى بالقيح، أما القلقُ الساكن في عينيه الجافتين، فلم يُعرف له تفسير.

هو بدوره حين رأى صفَّ المرحبين به، توجس خيفةً، فهو لم يعتد الاختلاط بهذا العدد من الناس، ولسنوات طوال، لم يتقن شيئاً آخر غير الانزواء والعزلة.

لم يكن عليه سوى ملابس رثّة تسترُ جسداً منهكاً، بينما يخفي تحت إبطيه نعلاً مهترئاً. ظل واقفاً للحظات بانتظار أن يتقدم منه أحدٌ، ليفسر له هذا المشهد الذي وجد نفسه بطلاً له. لم يعلم أين هوا وماذا يفعل هنا! ومن كل هؤلاء الذين يتطلعون نحوه بقليل من الاكتراث وكثير من الدهشة! ظلّ ينظر في عيونهم وكأنهُ يقرأ نيّاتهم، بيدَ أن عقله المرهق كان يشكُّ بكل شيء يدورُ حوله.

حين تقدم الفضيل خطوةً للأمام، ومدّ يداً لمصافحته، انكمش على نفسه دون أن يشعر. عوى بقربه ذئبٌ فارتبك كعادته، بينما تناهى لسمعه صرير أبواب صدئه تفتح بصعوبة.

هو يعي تلك التفاصيل جيداً؛ لم تبرح عقله بعد، يتذكر يوم وصوله، واللحظة التي فارق فيها عالماً لم يتحسر عليه كثيراً، يتذكر الوجه الأخير الذي رآهُ قبل رحيله، والنظرةَ المريرة التي تركها خلفه، يجولُ في حلقه الآن ذاك اللعاب اللزج الذي تمنى لو بصقه في وجوههم قبل الرحيل. يتذكر قسمات الوجوه الأولى التي تعرّف عليها، والابتسامات الدافئة التي لم يعتد

رؤيتها في العالم العلوي، يتذكر كيف فارق أناساً قبل أن يودعهم، وكيف ماتت الحياةُ في داخله قبل وصوله إلى هنا بسنوات.

يتذكر لحظاته الأولى بدقة؛ كيف أخذ الفضيلُ بيده، واستضافهُ عدة أيام في قبره، يتذكر النساء اللواتي كن يحكن بدأب ملابس صوفية، وكيف ناولته سيدةٌ منهن، قطعةً مشغولة بإتقان ليدفئ بها جسده المرتجف، يتذكر وهو يجلسُ الآن بانتظار أن يأتي دوره ليسلّم على القادم الجديد، كيف التزم الصمت طويلاً قبل أن يبوحَ للفضيل بشيء مما لديه. كل تلك الأحاسيس لم تفارقه لحظة، وما تزال للآن، تفور في داخله.

تتزاحمُ تلك المشاهد على عقله، بينما يهمُّ بالنهوض للسلام على القادم الجديد.

حين وصله الدور، مدّ يداً دافئة لمصافحة القادم المرتبك، وربتّ بشيء من الطمأنينة على كتفه، ثم استدار بعدها إلى الخلف، فرأى عيون الفضيل تبحث عنه بقلق.. رفع له حاجبيه كتحية، وحين ابتسم الفضيل في وجهه، أكملَ سيرهُ وعاد يجرُّ الخطى وحيداً.

في كل مرة يعودُ فيها من طقس الاستقبال ذاك، تعاودهُ هواجسُ البدايات. فأيامهُ الأولى تشبهُ ولا شك أيام غيره ممن قدموا إلى هنا، مع

فارق بدا واضحاً للجميع؛ فالعناية التي أولاها له الفضيل، دفعت الجميع للتساؤل عن سرّ هذا الاهتمام.

فبعد أن انفضّ جمعُ المرحبين به، وبعد أن سلّموا عليه وبثوا كما اعتادوا دوماً، شيئاً من الطمأنينة في روحه المضطربة، بعد أن هدأت أطرافهُ المرتبكة وبدأ الجميع بالانسحاب من أمامه، وبينما يحاول عقله المشوّش استيعاب هذا المكان الذي وصله رغماً عنه، اقترب منه الفضيل، وهمس في أذنه: "هدّئ من روعك قليلاً، لا تتوجس من هذا العالم الهشّ.. يقيني ينبئني بأن رجلاً مثلك لا تعوزهُ الحكمة. إياك أن تندهش مما سترى، نحنُ هنا لا نتحايلُ على الموت وبذات الوقت لا نقفُ في صفه، تذكّر ما قال أحدُ الحكماء ذات مرة: كل فناء لا يُعطي بقاءاً، لا يُعوّل عليه. تفضل معي".

ثم قادهُ من يده.

آلمتهُ خاصرته.. لكنه رضخ لما سمع. لم يفهم في بادئ الأمر مغزى الكلمات التي خاطبه بها الفضيل بكثير من الوقار، فهذه أول مرة منذ سنوات، يتعاملُ معه أحدٌ بمثل هذه الطريقة المؤدبة، أو يشعرهُ بشيء من التقدير. راقهُ هذا الأمر كثيراً.

هزَّ رأسه باضطراب ثم مضى وراءه دون أن يقول شيئاً. بدا واضحاً له أن الفضيلَ يحظى بمقام رفيع، ففي كل مرة يخطو فيها أمامَ قبر ما، ينهضُ

الرجال لتحيته، بينما ترشُّ النساء الماء تحت أقدامه خوفاً من عجاج الطريق.

مشيا على امتداد صفّ القبور، حتى وصلا قبراً بدا له مختلفاً.

كان القبر الذي يقطنُ فيه الفضيل أكثر القبور سعةً، توجد أمامه ثلاث درجات مترية، تفضي لمساحة تكفي ليرقد بها عدة أشخاص، بينما يقبع عند زاويته اليسرى، قبرٌ صغيرُ الحجم تشي هيئته، بأن ساكن هذا القبر يحظى بالاهتمام والرعاية. حين وصلا، طلب منه الفضيل الاقتراب، فاعتذر بشيء من التوجس. عندئذ سأله الجلوس على درجة قريبة، بينما غاب الفضيل قليلاً.

في تلك الأثناء، جالَ ببصره في المكان الذي وجد نفسه قد سيق إليه، لم يعرف شيئاً عن هذا العالم الجديد، صحيحٌ أنه يشبه في صمته وعزلته ذاك العالم الذي خبره في سنواته الأخيرة، لكن شيئاً من الغموض يلفّ المكان برمته؛ الضوءُ خافتٌ بعض الشيء، ونسمةٌ رماديةٌ باردةٌ تطوفُ على قبور أنهكها الموت، وتحمل معها تراباً ناعماً.

شعر بأن عظامه تصطكُّ من البرد، ففرد على كتفيه بحركة لا إرادية، رداء الصوف الذي ناولته إياه سيدةٌ مسنةٌ أنهت حياكته توّاً.

منحه الصوف شيئاً من دفء افتقده طويلاً، أشعره بأن مذاق السكّر يمكن أن يتجلى في عدة صور. أنصت للهدوء الذي ينصبُ شباكه في كل مكان، وحاول إغراق نفسه في سكينة آسرة تتسرب إلى نفسه خلسة. ثم فجأة، نهض مذعوراً.

"هو لاشك كابوسٌ جديدٌ من كوابيسي التي لا تنتهي.. لن يفتنني هذا، ولن آخذ ما يجري لي على محمل الجد"، قال في نفسه وتلفّت حوله عدة مرات. "لعل الأمر أقرب إلى الأحجية إذن! ما هذا المكان الذي بلغته، وكيف عبرت كل تلك الحواجز التي وضعوها أمامي؟ ثم أين اختفى الصوت وصاحبه! أين اختفيا؟". قفز السؤال لعقله وهو يحاول استيعاب ما جرى توّاً. "كيف لصوت حفر في جمجمتي ورافقني عشرة أعوام أن يتبخر بهذه السرعة؟".

أشاع هذا الأمرُ الرعبَ في نفسه، لفرط قلقه، اندفع راكضاً دون أن يلتفت وراءه، بيدَ أن ألماً حارقاً دبَّ في مفاصله الجافة، وأقعدهُ رغماً عنه.

لم يسبق له أن خطى كل هذه الخطوات، تأوّه مرغماً من شدّة الألم، وعاد مجدداً يفتشُ عن أثر للصوت. أنصت ملياً لكن لا أثر. حاول الخطو ثانيةً فتعثر بحجر ووقع على وجه، وحين رفع رأسه، كان الفضيل يقفُ أمامه وبيده رغيف خبز. لم تنشد روحه شيئاً في تلك اللحظة غير رغيف ساخن.

مدّ له الفضيل يداً لمساعدته، ثم ناولهُ كسرة خبز.

أحس بشيء من الألفة في يد الفضيل، لعلها المرّة الأولى التي تمتدُ له يدٌ دون أن تصفعه، أو تخيطَ في لحمه المتهالك ألماً جديداً. نظر إلى عيني الفضيل بخجل، تناول من يده كسرة الخبز، وحين وضع اللقمة في فمه، استيقظت على الفور جميع حواسه.

عدّل الفضيل عباءته على كتفيه، وبثّ في وجه مصطفى ابتسامة صادقة، ثم أشار له ليتبعه، وقبل أن يوسّع الخطو، اقتربَ منه مجدداً وهمس في أذنه: "غريبٌ أمرك! لكي يكون المرء على هذا القدر من التوجس والرهبة، لابد أن تكون روحه متخمة بالحسرة.. على كل حال عندي يقين بأن لديك من المرارة ما يفوق حاجتك، لكن لا تتوجس من الموت أرجوك، بوسعه حين يكون في أوج فتنته أن يرحل بك بعيداً، وبوسعه أيضاً أن يأتي بالعالم حتى أطراف قدميك.. امش معي".

حين عادا إلى قبر الفضيل، كانت نسوةُ المقابر قد هيأن المكان للقادم الجديد، أعددن له ملابس نظيفة، مسحن بماء دافئ الترابَ عن جروحه المتقيحة، عالجن أصابع محروقة النهايات، بينما شرعت أخريات في غناء موجع وحزين.

أدهشه كل ما رأى؛ خوفُ النسوة عليه، والدمع الذي ترقرق في عيونهن حين رأين لحمه المخدوش، وأطرافه المتورمة والنازفة.

كان ملمسُ القطن الدافئ في أيديهن يمضي به لعالم ساحر، أما غناؤهن البعيد كل البعد عن ولولة النواح، فكان -رغم الحزن الذي يقطر منه- يمارسُ على روحه فعلاً أقرب إلى وخز اليقظة.. عندئذ، تذكّر زوجته أماني على الفور، مَن غيرها باستطاعته أن يحيل هذا الوجع المترامي إلى فتنة، أو يجدد في الروح بهجة المسرات، تذكّر وجهها الصافي، شعرها الكستنائي، أصابعها النحيلة، ونظرتها الأخيرة التي ظلّ يقتات بها سنوات طوالاً.

بوسع أماني أن تكونَ هنا، لكنها لسبب ما، ليست بينهن.. يالخبث الكوابيس ولؤمها!

أمضى- ما اعتقد أنها أيامه الثلاثة الأولى- ضيفاً على الفضيل. كانت تلك الأيام أقرب إلى حلم ساحر لا يودُّ الفكاك من لذّته. في اليوم الرابع، خيّرهُ الفضيل بين البقاء عنده أو المضي نحو قبر هيأوه خصيصاً له. كان يدركُ في قرارة نفسه أن أيامه تلك لا تشبه بأي حال من الأحول سنواته الأخيرة، فبقاءهُ قرب الفضيل ومعايشته له، أعاد له شيئاً من سكينة تاق إليها طويلاً، لكن رغم ذلك مالت روحه للعزلة.

لا غرابة أن يلوذ مجدداً بالعزلة، يصعبُ على من خبرها مثله، أن يضيعها في الزحام.

ظلّ طوال المدة التي قضاها عند الفضيل صامتاً، يراقبُ ما يجري حوله بعيون نصف مغمضة، لم يتح له الإنهاك الذي استفحل في جسده فرصةً للتيقظ، ومعرفة كل ما يدور حوله. في ذات الوقت، لم يسأله أحدٌ شيئاً، ولم ينغّص عليه الفضيل ولو للحظة واحدة. عاش أيامه كما لو كان ضيفاً عزيزاً يحتفى بقدومه. لكن رغم ذلك، لم يتوقف عقله المشوّش عن التفكير في شيئين اثنين أرّقاه طويلاً: الشرود الذي بدا دوماً على الفضيل، وذاك الصوت الذي أنهكه كل تلك السنين، ولم يعد له اليوم أي أثر!

حين اختلى بنفسه، راهن على أن ما يجري معه ليس أكثر من حلم مخادع، فحاول قدر استطاعته استرجاع بعض مما حصل له مؤخراً، وأول شيء فعله كان البحث مجدداً عن ذاك الصوت الذي اختفى فجأة. حاول استحضاره أكثر من مرة لكن لا أثر للصوت ولا وجود لصاحبه. أيعقل هذا! كان يظنُ في قرارة نفسه أن ذاك المشؤوم الذي نغّص عليه طويلاً، سيسيرُ برفقته حتى حدود العالم السفلي، لكنه أحس لأول مرة أنه قد تجاوز ذاك الصوت الجارح إلى الأبد.

أدرك أيضاً أن لا شيء كالموت، قادرٌ على تخليصنا من كوابيسنا وأوجاعنا، ومنحنا كل ما نحتاج من طمأنينة وسكون.

أشاعَ هذا الأمر حالةً من الهدوء في داخله، صفى ذهنه قليلاً من وخز الصوت الذي فاق بقسوته كل احتمال. صحيحٌ أن الصوت وصاحبه قد غابا، لكن كيف له أن ينسى وجع ساعاته الأخيرة!

لم يسع للتذكر. وصلَ إلى قناعة بأن الأمس ليس أكثر من جسد مسجى، لا حاجة لبعث الحياة فيه من جديد، لذا قرر قطع علاقته بكل ما مضى.. كانت تلك أول مهمة عهد بها لنفسه، أراد أيضاً أن ينحّي الذاكرة جانباً، لكن وحدها الذكريات المؤلمة تتسابقُ لتحجز لنفسها مكان الصدارة.

عوى ذئبٌ فاختلطت عليه الأشياء من جديد. سمع أصواتاً مألوفة تقترب منه شيئاً فشيئاً، ورغم ذلك، عاودت تلك الدقائق المريرة التحرشَ به، كانت أقرب لجرس أجوف، دقّ ليعلن رحيلاً ساقه القدر إليه باشتهاء. هي دقائقٌ يأبى عقله أن يتجاوزها، رغم أنها لم تحو سوى شخصين اثنين: هو، ورجل لم يعرف منه سوى صوته.

هذا الصوتُ الذي يمرُّ على ذاكرته الآن، وما يزال يحتفظ برهبة اللحظة الأولى ورجفتها.

"لستُ أبحثُ عن موت باهت، فحتى الموت أحبُ أن يكونَ شهيّ المذاق". أتذكُرُ هذه العبارة؟ سألهُ صاحب الصوت وهو يمدُّ له صحن

الطعام ويجلسُ قبالته كما اعتاد أن يفعل دوماً. قد لا تذكرها الآن، فقد مرّ عليها وقتٌ طويل، أما أنا فلن أنساها ما حييت، أتدري لماذا؟ لأنها العبارةُ الوحيدةُ التي استطعتُ أن أستلها من فمك طوال عشرة أعوام.

أيعقلُ هذا!

كنتَ تنشدُ موتاً شهي الطعم إذن، موتاً أقرب إلى خلاص فاتن، يريحك من وجعي وجنوني، هاكَ إذن من لا لون له ولا طعم، تلذذ به قبل أن تزحف نحوك الحشرات، وتشاركك وجبتك العفنة.

أعلمُ أن صوتي سيوقظك من غفلتك، صوتي الذي طالما أدرت له ظهرك.

حين تسمعه، تفركُ ما تبقى من عينين غائرتين، تحاول التحرك قليلاً، فيتعثرُ كوعك بصحن حديدي تفوحُ منه حموضةٌ لاذعة. تبحثُ-كما اعتدت أن تفعل في كل مرة- عن قليل من الضوء فلا تجد، تتحسسُ اسمنت الأرض الباردة تحتك، وتنصتُ محاولاً تتبع الصوت النائه في سواد هش، وقبل أن تضبطَ سمعك على آخر حرف أمنحك إياه، سيكون صمتي قد شقّ طريقه نحوك.

أتعلمُ أنك ستتم هذا اليوم، عامك العاشر في السجن! يا الله!!

أيُ حيوان أنت! أيُ كائن عديم الإحساس يقبعُ داخلك، ويقنعك بأن تلفني كل تلك السنين من عمرك دون طائل! كان باستطاعة رجل حكيم مثلك أن يدلنا عليهم، يشير إليهم من بعيد ويريح نفسه من هذا العناء، لكنك كنت تنشد بطولةً فارغة، وها أنت إلى اليوم تدفعُ ثمناً باهضاً لهذا الصمود الزائف.

تتسترُ على قذرين مثلك، أقدموا على فعلة شنيعة! عليكم اللعنة.. عليكم اللعنة جميعاً.

مصطفى.

لم لا تمدُّ يدك إلى صحن الطعام؟ أترفعُ عن طعامنا مثلما ترفعتَ عن الحديث معنا طوال تلك السنين؟ أتظن أننا لا نرقى لمستوى فكرك المتقد، لم لا تردُ على ما أقول؟ ها؟ أتغيظني بصمتك؟ يا لصلابتك وعنادك! لم يمرّ على سجني هذا شخصٌ مثلك، علي الاعترافُ بأمر كهذا، علي التسليم بأن كل التعذيب الذي أذقتك إياه، لم يكسر يوماً عزيمتك، ماذا أفعل بك الآن؟ وبهذا الصمت الذي يكويني رغم أنفي!

آآآه منك ومما تفعلهُ بي.

كنتُ أرفّه عن نفسي بتعذيبك، أقطعُ إجازاتي لأمارس سخطي عليك، أتركُ ورائي عالماً مليئاً بالبهجة، أغادرُ بيتي وأترك زوجتي وأتسللُ صوب زنزانتك لأشفي غليلي من كبرياءك المقيت، لعلي أكسرُ هذا الصمت الذي احترفته وشهرته في وجهي منذ يومك الأول. لكن بلا جدوى، بلا جدوى. أيريحك إذن أن أقولَ لك بأن صمتك هزمني، بأنني لم أنجح في خلخلة ذاك الذي لم يتوقف عن النمو في داخلك. حسناً، لك هذا.

كنتُ أتحدى رؤسائي بقدرتي على كسرك، أو انتزاع الاعترافات منك، أو تليينك على أقل تقدير، لكنك قررتَ أن تكون صاحب أول هزيمة تُسطّر في سجل انتصاراتي كسجّان.

ها نحن وحدنا الآن، كما اعتدنا أن نكون منذُ أول يوم لك هنا.

وحدنا، ولاشيء يؤثث هذا الخواء المفرط سوى آنات من الألم، تسكن كل رواق من هذه العتمة الخانقة، عتمةٌ تتواطأ مع صمت مريب. أتذَكرُ كيف أطعمتُ هذا الصمت الكثير من وجعك ولحمك، كيف تجلّطتْ قطرات دمك النازف على برودة البلاط، كيف شممنا معاً رائحة شَيّ أصابعك وأنت تنظر نحوي بأسى! لكن مع كل ما قمتُ به تجاهك، سأعترفُ لك بأنني يئستُ في مرات كثيرة من مقارعتك.

سأعترف لك بأنني كنت أتوقُ لإنهاء هذه المواجهة الصامتة بيننا، بطريقة تحفظُ لي كبريائي أمام نفسي. وددتُ في مرات كثيرة، لو أستطيعُ دسّ السم لك في طعام عفن، فتنفجر أمعاؤك وتريحني من صمتك المرير، لكن شيئاً ما كان يعيقني ويقفُ في وجهي.

أأقول بأنني أشفقت عليك من جنوني؟ ربما.
أأقول بأنني أشفقت على نفسي من صمتك؟ ربما أيضاً.

سأعترفُ إذن بأن صمتك هزمني. أقعدني دون حراك، وليس سهلاً على رجل بجبروتي وقسوتي أن يقول أمراً كهذا، هو اعترافٌ بطعم الهزيمة، أضعهُ الآن أمامك لأنك لم تعرف يوماً من أكون، لم تر وجهي أو تلحظ شيئاً من ملامحي طوال تلك السنين، قد تظنُ في قرارة نفسك بأنني شبحٌ لا وجود له، يتخلّقُ كل نهار في زوايا خوفك، ويخرجُ لك من عتمة الزنزانة، ليرُشَّ حبيبات الملح على جروحك النازفة.

ستظنُ أشياء كثيرة، لكن قبل أن تجمعَ ريقك وتبصقَ في وجهي، كما اعتاد أن يفعل السجناءُ وهم في هلوسات التعذيب، أريدُ أن أقيم حفل وداع يليق بصمودك. حفلٌ سيظلُ عالقاً في ذاكرتك ما حييت.

حفلُ وداع؟ هل قلتُ وداعْ؟ نعم. لكن تمهل، لست أنت من سيرحل، أنت باق هنا طالما قررت أن تحبس الكلمات في جوفك، أنا من سيغادرُ هذه

العتمة، من سيتركُ الأقبية وغرف التعذيب، ويخطو فوق روائح الدم والبول والألم التي تتسلل عنوةً للأنف.

لم لا تمد يدكَ إلى صحن الطعام؟ أقررت الإضرابَ عنه هو الآخر؟

قد يكتبُ لنا لقاءٌ ذات يوم، فمثلما جاءوا بك إلى هنا، قد يقرروا أيضاً إخلاءَ سبيلك، حينها ربما تصبح قادراً على استعادة علاقتك بالحياة، لكن من يدري، ربما يحصل لك ما حصل مع سجين أُفرج عنه قبل سنين. فحين كان باستطاعته الرؤية، حشرناهُ في زنزانة معتمة، وعندما أخلينا سبيلهُ نحو فضاء النور، كان قد فقدَ عقله قبل أن يفقد قدرتهُ على الإبصار. لكن قل لي، لو حدث أمرٌ كهذا، هل ستتعرف عليَّ؟ على هيئتي؟ صوتي؟ هل ستتعقبني لتنتقم مما فعلته بك؟ هل ستنسى قسوة الحبس ومرارته؟ أتسامحني على ما اقترفت بحقك؟ أتسامح!

عند تلك الكلمة، توقفَ الحديثُ بينهما.

توقف شيءٌ ما.

* * *

الفصـل الثانـي

كيف لمن احترف الصمتَ عشرة أعوام أن يستعيد لغته في أيام!

ليومين متتالين، وهو يحاولُ أن يقول شيئاً، أن يمـرّن فكّيه ولسانه على الحركة، أو يدفعهما للنطق لكن دون جدوى. لم تطاوعه شفتاه- اللتان ألفتا على ما يبدو الصمت والإطباق- على التلفظ بشيء. مع هذا لم يخف من ضياع أبجديته، سيعرف كيف يوقظها من رقدتها عند الضرورة.

في قبر الفضيل- وعلى عكس ما فعلت به الزنزانة- راحت حياةٌ جديدةٌ تزهر في داخله، تعافت أطرافه النازفة، واختفت كدمات زرقاء بقّعت جسده الضامر. لأول مرة شعر أن باستطاعته استعادة ذاته الهائمة، بإمكانه لملمة شتاته وسط ترف الضيافة الذي أحاطته بها نسوة المقابر، شعر أيضاً بشيء من التصالح مع جسد لم يعرف غير الخدر، وروح حامت طويلاً في سماء معتمة.

خلال أيامه تلك استفاق عدة مرات، أنَّ كما اعتادَ أن يفعلَ في ليالي سجنه، كان كل شيء حوله أقرب إلى الغبش والهلوسة، ما يتذكرهُ الآن هو أن الفضيل ونسوة المقابر ظلوا بقربه، كلما حاول الاستفاقة أو التململ، كانت يدٌ حانيةٌ تمرُّ على جبهته، تقلّبه يمنة ويسرة، وترخي جفونه التي تغضّنت من شدة الإنهاك.

لم يحز مثل هذا الاهتمام منذ سنوات طوال.

حين استيقظ في ثالث أيامه وفتح عينيه بتراخ، فعل ما اعتاد فعله في حبسه الانفرادي؛ انكمش على نفسه، جال ببصره قدر المستطاع، تحسّس جسده وأطرافه، لمس الأرض تحته، مرّ بأصابعه الخشنة على تراب ناعم، وتذوق بلسان حذر طعم الهواء.

عندها أدرك أنه بين احتمالين لا ثالث لهما: إما أن تكون هلوسات التعذيب قد فعلت فعلها، وعادت كوابيس الحبس لتمارس خبثها من جديد، أو أن ذاك العالم الذي عافهُ منذ يومه الأول، قد ولّى إلى غير رجعة.

صفن قليلاً، أعاد عقلهُ ترتيب الاحتمالات من جديد؛ المكانُ كالحٌ لكن به ألفه، الجسدُ منهكٌ لكنه متماسكٌ بعض الشيء، الترابُ حوله ليّنٌ وشهي، أما مذاق الهواء فجديدٌ وفاتن. راقته تلك النتيجة التي خرج بها عقله، بثّت في نفسه قناعة بأن ثمة شيئاً ما يدور حوله. تروّى في حركته،

أزاح كتفيه ببطء، ومدّ ساقيه على استقامتهما. لم يستعجل النهوض، خشي أن يكون على باب حلم مشاكس، يوشك أن يقهقه في وجهه بسخرية، ويعيده لتلك العذابات.

أنصت لصفير الريح، وبعد أن تيقن مما يدور حوله، نوى زحزحة جسده وعزم أمره على النهوض. مال نحو اليمين، ثم عدل جلسته واتكأ على حافة القبر. حدّق في الساحة الممتدة أمامه فلم يلمح أحداً، مطّ قدميه وحاول الوقوف فسمع طقطقة تسري تحت الجلد، عاود الجلوس ثانية متأملاً هذا الصمت المدهش الذي يلف المكان بأسره.

أسند ذقنه براحة اليد، وغاب قليلاً في عالم شاحب يخفتُ أمامه بهدوء.

لم يستعد شيئاً من تركيزه إلا حين رأى خيالاً يقترب منه. لأول مرة يقترب منه خيال دون أن يرافق حضوره سيل من الشتائم أو جلبة يحدثها رنين مفاتيح صدئه. فرك عينيه كما اعتاد أن يفعل دوماً، فأدرك أن الفضيل يدنو منه، حاول الوقوف احتراماً له، لكن الأخير تبسّم في وجهه وأشار له للجلوس. في تلك اللحظة حاول النطق فلم يستطع، لاكَ فمهُ الفراغ مراراً، حاول خلخلة صف أسنان أطبقت طويلاً على الكثير من القصص والاعترافات، لكن دون جدوى.

لأول مرة منذ سنوات، يشعر برغبة عارمة في التخلص من هذا الحصار الذي فرضه على نفسه. الكلماتُ تصطف في عقله لكنها تأبى الخروج. شقّ عليه هذا الأمر، بدا وكأنه فقد قدرته على الكلام، أدرك الفضيل حرج موقفه، فقال له بصوت عميق: "لا تتعجل. ليس ثمة فضيلة أجمل من الصمت، عندما تحتاج حقاً لكلمة، فإنها ستأتيك". ثم ناوله شربة ماء.

تمنى في تلك اللحظة لو أن باستطاعته الصراخ، أو الذهاب بالأشياء إلى حافة الاستنطاق، تمنى تمزيق الصمت الذي نسجه حول نفسه بكثير من البذخ والإصرار.

غبّ جرعةَ ماء فسال بفتنة في حلقه، راح يغسل كل ما تيّبس في طريقه، أخذ جرعةً أخرى ففرت من فمه دون أن يشعر، كلمة واحدة تردد صداها في الأرجاء: "شكراً".

رنّت تلك الكلمة في أذن الفضيل، فاقترب حينها وجلس بقربه. ظل الاثنان صامتين إلى أن فكّك الفضيل شيئاً من الجمود حين طلب منه مرافقته. قال له سأمُرّ بك على من يشاركونك هذا العالم، أريدك أن تدخل عميقاً في أحجية الموت، هذه الأحجية ليست كما يظن البعض، مآل الغرباء والمتعبين. عندما نهض، بدا وكأن جسده استعاد شيئاً من عافيته، راقهُ هذا الأمر، نظر للجسد بشيء من السعادة، ولأول مرة منذ سنين

طويلة، تعرفُ الابتسامة طريقها للوجه، كانت تلك الابتسامة أول شيء أعاد اكتشافه في ذاته.

طافا على قبور كثيرة. فبعد أن اجتاز الفضيل الساحة المتربة التي تمتد أمامه، انعطف قليلاً وراح يسير على امتداد القبور التي اصطفت متعبةً قرب بعضها البعض. كان كلما اقترب من أحدهم، همّ بالوقوف تحية له. حيّر هذا الأمر مصطفى كثيراً، خصوصاً وأن الفضيل لم ينطق بكلمة واحده منذ أن مشيا سويةً.

مع أنه شعر بينه وبين نفسه بأن هذا المشهد مألوف له، فإن الخطوات التي مشاها برفقة الفضيل قد أقصت أي شيء آخر كان يفكر فيه. فمع كل قبر يتم المرور عليه، تولد في عقل مصطفى عشرات الأسئلة، وكلما حاول لجمها، تكاثرت وجلبت معها المزيد من الدهشة. همَّ أكثر من مرة بسؤال الفضيل عمّا يجري في هذا الفضاء المدهش، لكنه تروّى. تذكّر ما حفرت يده ذات يوم على حائط زنزانته: "من الحماقة أن تصوغ أولى كلماتك لشخص لا تعرفه، على هيئة أسئلة".

عوى ذئب من بعيد فارتجف، لكن الفضيل لم يلق بالاً لهذا.

كلما تجاوزا قبراً، نظر خلسة للفضيل الذي تتغير ملامحه وقسمات وجهه، وكأنه يحكي بشيء من الصمت، بعضاً من حكاية هذا المكان

وساكنيه. في أثناء ذلك، استطاع عقلهُ أن يركب قطعاً من تلك الفسيفساء التي استعصت على الكثيرين. وحين شارف مشوارهما على النهاية، كان قد ألمّ بالمشهد برمته.

لم يفاجأ بما رأى، وبينما يطوف على مقابر تعج بالحكايا والأموات، كانت ترتسم على محياه ملامح الراحة أحياناً والقلق أحياناً أخرى، صحيح أنه لم يُعلّق بشيء، لكن يقظته ألقت في نفس الفضيل العديد من الأسئلة. لذا تحين الفضيلُ أول فرصة لاحت له وسأله بشيء من الاستغراب: "أيدهشك ما رأيت! عن نفسي أستطيع القول بأنك أول شخص يكمل معي طوافاً كهذا دون أن تخذله ساقاه، أو يزرعُ فيه هذا المكان خوفه المعتاد. ما قصتك؟".

لم يجبه، تبسّم في وجهه، وقال بينه وبين نفسه: "من عاش سنواته الأخيرة في زنزانة بائسة، يمكن أن يغدو عالم الموت بالنسبة له، أقرب لشيء مفعم بالرحمة".

حين عادا للجلوس في الساحة التي تقع أمام قبر الفضيل، سأله الفضيل عن المكان الذي يودُّ أن يتخذه لنفسه؟ قال له بأن أي بقعة تختارها، ستكون لك على الفور. ودّ الفضيل وهو يقول هذا لو يفصح له عن رغبته في إبقائه بقربه، لكنه آثر ترك الأمر له. وقتئذ وجدها مصطفى فرصةً سانحةً ليقول شيئاً لهذا الرجل الذي غمره بالكثير من عطف لم يعتد

مله. لذا قال له دون تردد: "حين تنال روحك شيئاً من الطمأنينة، تتوق لأن تظل بحضرتها".

سُرّ الفضيل مما سمع، صادف ذلك هوى في نفسه، فأشار لمكان قريب وقال: "صار لك".

همَّ بالنهوض والتوجه للقبر الممنوح له، فنهض الفضيل معه، وبعد أن قطع الاثنان خطوات قليلة، سألهُ مصطفى عن صاحب القبر الصغير الذي لم يتح له المرور به، فلم يجب، همَّ بالتوجه إليه، عندها مدَّ الفضيل يدهُ وأوقفه.

تغيرت قسماتُ وجه الفضيل وتبدلت نبرة صوته، فأربك هذا الأمر مصطفى. ظنّ في قرارة نفسه أنه أساء التصرف، فحاول التراجع للوراء، وتلبّك معتذراً، لكن الفضيل قطع عليه ذلك، وعاجله بصوت مثقل بالحزن: "لا أريد لك أن تكرر أخطاء الآخرين.. لعلك أكثر من يعلم أننا حين نغالي في كبح الصمت، يستحيلُ عويلاً، هذا الصمت أصبح رتقهُ مستحيلاً، واحتماله أكثر استحالة.. لا أدري لمن تخبئ السماءُ بهجتها، إن كانت تضنُّ بها على طفل!".

لأول مرة يستشعر الحزن في صوت الآخرين، ظنّ في قرارة نفسه أن لا أحد تجرّع الألم مثله، لكن حين نطق الفضيل عبارته تلك، لمس في حروفها وجعاً نفذ إلى روحه بسهولة.

وضع كفه على صدره كمن يعتذر للفضيل، ثم طأطأ رأسه وسار وحيداً نحو القبر. حين وصله كانت روحه تغزل عبارة واحدة لا غير: "تكفيني زنزانة واحدة.. لا أريد أن أبني حول نفسي زنزانةً جديدة، أريد مكاناً جديداً آوي إليه بحرية".

تلك الكلمات سيطرت على تفكيره، وهو يدور حول قبره الذي لا يبعد عن قبر الفضيل سوى مسافة قصيرة. في لحظاته الأولى، ظنّ أن السأم سيفتك به، فما الجديد الذي باستطاعته أن يفعله هنا غير ذاك الذي يفعله في زنزانة تضيق على جسده كل يوم؟ هزّهُ السؤال، لو ركن لخبث السؤال وقسوته، لأمضى جلّ وقته شأنهُ شأن القابعين هنا؛ لا يفعلون شيئاً سوى التطلع بضجر نحو العتمة والفراغ الشاحب، أو التمدد بصمت في قبور مترية، والجلوس فوق ألواحها الرخامية في أحسن الأحوال.

هو لم يفعل ذلك، فبعد أن تفقد القبر، أزال غباراً تراكم فوق حجارته، رمى ألواحاً مهشّمة وأعاد صفّ الحجارة من جديد، بحث عن حجارة مصقولة وملونة، ورسم بها إطاراً غير مألوف لمحيط القبر والمساحة الممتدة حوله. أضفت الحجارة الملونة التي بحث عنها طويلاً شيئاً من البهجة على

المكان. لم يكتف بذلك، بل حفر بيديه مسافةً إضافيةً مانحاً القبر اتساعاً وعمقاً ملفتين، ثم نخل براحتيه تراباً ناعماً وفرش به القبر. أما المساحة الصغيرة التي تقبع على مقربة منه، فمهّدها جيداً وجرّ لها حجارةً نصبها بشكل يغري بالجلوس.

أحسَّ وهو يغرسُ أصابعه في فتنة التراب، بلذة ساحرة، شتّان بين حياة أرهقته وأخرى يتطلع إليها بشغف، أين هو الآن من صلف الاسمنت البارد، وكآبة الجدران التي كانت تسند زنزانة أطبقت طويلاً على أنفاسه!

كان يشعر أن ثمة عيوناً تبرق في العتمة وتراقبه، تتطلع بفضول وترصد بتوجس كل ما يفعله هذا القادم الغريب، أحسَّ بشيء ما يتحرك في هذا الصمت الذي بلغ حد الاهتراء، لم يفهم سبباً لهذه الدهشة التي سرت بين القبور حين شرع في القيام بما قام به. لكنه لم يلق بالاً لهذا.

حين كان يعمل وحيداً وبصمت، أدار كثيرون وجوههم نحوه وراقبوا باهتمام كل ما يقوم به. لكن أحداً منهم لم يقترب منه، أو يبدد تلك الحيرة التي ارتسمت على الوجوه. أمضى وقتاً طويلاً يعمل على تشكيل القبر وزخرفته، وما إن انتهى من ذلك، حتى غدا القبر بحجمه وشكل حجارته واتساعه، أقرب لأيقونة لمعت وسط كآبة المكان.

اكتفى الجميع بمراقبة هذا الأمر غير المألوف الذي يجري بقربهم، لكن وحدهُ ياسين تجرأ وتقدم.

اقترب منه وراح ينظر باستغراب لما يفعله هذا القادم الجديد، وقف قريباً منه وتأمله بشيء من الضيق، ثم قال وهو يثير الغبار بباطن قدميه: "لم يُخل أحدٌ قبلك بناموس المقابر، لم يأت بشيء مما فعلت توّاً، ألا يعجبك المكان الذي اختاره لك الفضيل! هذه أماكننا التي اعتدناها طويلاً، لا يضيرنا فيها شيء، كان الأجدى أن تسأل الفضيل قبل أن تقدم على أمر كهذا، فهو من قرّبك كل هذه المسافة، ومنحك قبراً رحت تعبث به دون أن تقدّر تبعات ما تفعل. لا أدري ماذا تنشد من القبر غير أن يكون قبراً؟ ألا تعلم أنه سيبقى كذلك مهما تم تجميله! انتبه لما تقوم به أيها الغريب، طريقُ الغواية محفوفٌ بالملذّات".

لم ترقه تلك الكلمات التي أشهرها ياسين في وجهه دونما سبب، ودّ لو يقول له بصوت عال بأنه لا يُجمّل قبراً، بقدر ما يحاول أن ينعش ذاته التي تعبت وهي تفتش عن فرح مؤجل. لكنه أدرك أن هذا الزائر المفاجئ لا يريد أكثر من التنغيص عليه، فكبح شيئاً من الغضب في داخله، وظل صامتاً.

علمته الزنزانة أن الصمتَ أبلغ رد يمكن أن تجابه به فضول الآخرين.

ودّ لو باستطاعته شرخ هذا الصمت المكابر، لو يقول لهؤلاء الذين يطالعونه بحذر، إن علاقته المضطربة بالحياة توقفت لحظة زجوا به في السجن؛ تلك العلاقة التي أدهشه تفتق براعمها بعد أن صار في عهدة عالم آخر.

لكنه ظل صامتاً أيضاً.

لم يعجب ياسين صمته، قطّب حاجبين كثّين، وأدار له ظهره ثم مضى من أمامه بغير اكتراث، تاركاً إياه في فوضى البدايات. فكّر مصطفى طويلاً فيما سمع، تسّرب لنفسه شيء من القلق، أيكون حقاً قد أقدم على عمل أخلّ بالناموس! وأي خلل هذا الذي يمكن أن يقع من نفض غبار، وجلب بعض الحجارة الملونة؟ سأل نفسه باستغراب بينما عاد ليرصف آخر حجرين عند زاوية القبر.

حين أتمّ عمله، جلس يتأمل المكان الجديد الذي هيأهُ لنفسه، ورغم حديث ياسين الذي شوّش عليه، إلا أن قشعريرة خفيفة سرت في نفسه حين تمدد في حفرة صارت له. غاب في ملكوت شاسع ولم يفق إلا على صوت حصى، تدوسها أقدام سيدة مسنة كانت تتقدم نحوه ببطء.

حين اقتربت، لمح في وجهها طيبة الأمهات ووداعتهن، فابتسم وأخلى لها مكانه. قبل أن تجلس، مسحت براحة يدها على وجهها البهي، ثم

أخذت ترشُّ الماء من إبريق جلبته معها. بعد أن أتمت ذلك، قرّبت حجراً صغيراً، وجلست عليه.

قالت له: "هذه أول مرة يفعلُ فيها قادمٌ جديدٌ ما فعلت توّاً، كأني بك كنت تنتظر مكاناً مثل هذا؟".

لم يدر كيف يرد على هذه السيدة التي عرف فيما بعد أنها تكنى بأم طه، لم يجد ما يقوله لها خصوصاً أنه قرر، بينه وبين نفسه، أن يسلخ الماضي ويرميه وراء ظهره، لكن النظرات التي كانت ترسلها أم طه نحوه، هيّجت في داخله رغبة في الحديث. رغم ذلك، كبت تلك الرغبة داخله، وشكر أم طه التي جاءت زيارتها لتهدئ شيئاً من القلق الذي نما في داخله جرّاء ما قاله له ياسين.

أشاع مجيؤها الراحة، خصوصاً حين رشّت بيديها الموشومتين، الماءَ فوق تراب القبر. وتمتمت بالكثير من الأدعية التي ألقت في نفسه شيئاً من الطمأنينة. لكن رغم ذلك ظل سؤالها يرنُّ في خاطره.. "كأني بك كنت تنتظر مكاناً مثل هذا؟".

فكّر في الرد على سؤالها، ثم وجد نفسه يقول: "لعلي استبدلتُ الذي هو أدنى بالذي هو خير، لولا هذا المكان من أين لي بمعرفة سيدة طيبة مثلك؟ اسمحي لي أن أشكر لك قدومك. من حسن حظي أنك جارتي

وأنك تكرمت علي بالحضور، أراك تنظرين للمكان باندهاش، أيعجبك! إن راقك ما قمتُ به، فعلتُ لأجلك الشيء ذاته".

هزّت أم طه رأسها بوداعة، ثم ردّت عليه بصوت يملأه التنهد: "أيغيرُ هذا من كونه قبراً يا بني! على كل حال سأقبل، إن فعلت ذلك مع حسّان". وأشارت ناحية قبر الفضيل.

رغم أنها أول مرة يسمع فيها اسم حسّان، أدرك على الفور أن ذاك القبر الصغير الذي يقبع على يسار قبر الفضيل ويحظى برعاية ملفتة، هو لحسّان.

صمت برهة، ثم عاجلها بسؤال: "ومن هو حسّان هذا؟ أين لي أن أجده؟". ردّت وكأنها كانت تنتظر سؤالاً كهذا بفارغ الصبر: "أتفعل ذلك حقاً؟ ستجدهُ قرب باب المقابر ذاك، دائماً ما يكون وحيداً هناك، سيُسرُّ منك الفضيل كثيراً، فما من أحد إلى الآن استطاع دفع حسّان للحديث أو الاختلاط بأحد. حاول كثيرون معه، أنا عن نفسي رقيتهُ بتعاويذ قديمة سمعتها من أسلافي، فعلتُ لأجله الكثير لكن دون فائدة".

لم يكن حتى الآن قد رأى حسّاناً أو سمع عنه، لكنه استطاع أن يلملم من حديث أم طه، الكثير من التفاصيل حوله.

بدا وكأن أم طه تريدُ أن تتخفف من ثقل حكايا أرهقتها طويلاً، فسردت على مسامعه الكثير من التفاصيل التي كانت شاهدةً عليها منذ وصول حسّان، ومنذ أن عهد إليها الفضيل برعايته. كانت تتحدث عن حسّان بحرقة، وكأنها توقظ في روح مصطفى شيئاً دفيناً. حين باحت بها في نفسها، ودّعته وطبعت على خده قبلةً حانية، ثم عادت تخطو مطمئنة إلى قبرها.

شغل الحديث الذي رمته أم طه في حضنه، تفكيرهُ فترة طويلة، كلما تعمق فيه، برقت في ذهنه مجدداً كلمات الفضيل حين خاطبه في أيامه الأولى قائلاً: "لا أريدُ لك أن تكرر أخطاء الآخرين". عن أي أخطاء كان يتحدث الفضيل إذن! أخطائه هو؟ تَوقُعُهُ المبكر لأخطاء هذا القادم الذي كان في عالم آخر، ولا يعلم ما يدور في أروقة هذا المكان، أم أخطاء اقترفها آخرون على ما يبدو؟ لم يهدأ عقله عن التفكير مذّاك، أربكه هذا الأمر الذي لم يعرف إلى أين سيفضي به.

"ربما تعوّلُ أم طه الكثير على رجل لا تعلم عن ماضيه شيئاً". قال في نفسه وهو يفكر رغماً عن إرادته بأمر حسّان. كيف سيقابله؟ وهل سيتمكن حقاً من الاقتراب منه، أو اجتياز هذا الصمت الذي أشهره في وجوه الجميع! لكن بأي وجه حق تضعهُ أم طه في متاهة كهذه!

كلما فكر في هذه المهمة التي وجد نفسه منقاداً إليها، كبر الخوفُ في داخله، وأرّقهُ سؤالٌ مقلقٌ يرأسُ كل الأسئلة التي تحتشد في داخله.

تمنى في تلك اللحظة لو يلحق بأم طه ليضع حداً لهذا، تمنى لو يقول لها عذراً، لا أقوى على ذلك، فمن أفنى عقداً من عمره في سكون مطبق، ومن لم يعاشر طوال تلك السنين غير القتلة والجلادين، يستحيل عليه أن ينتشل طفلاً صغيراً من صمته وكآبته.

***

الفصل الثالث

لأول مرة منذ أن خبر هذا العالم، تجتاحهُ رغبةٌ عارمةٌ في الحديث. لم يكن يظن أن لحظة كتلك يمكن أن تعصف به بهذه السهولة. أحسّ بأن كل ذاك الصمت الذي لا ذنب له به، آن له أن يتفككَ على مرأى من أحد، لكن لمن سيكون بوحه الأول؟ أسند رأسه إلى حافة القبر وشرد في تفكير عميق، ثم قرر فجأةً النهوض والذهاب لرؤية الفضيل. مَن غير الفضيل يمكن أن يبدد على مرأى منه، بعضاً من مخلفات الأمس!

مشى نحوه بهدوء. لا أحد حوله في الطرقات. يخيّمُ على المكان صمتٌ موحشٌ وثقيل، الهواء بارد، والريح تصفر بجنون وتعيث خراباً في كل مكان. حين دنا منه، لمحه يجلس وحيداً عند قبر حسّان، أدرك للحظة أن من غير الحكمة أن يقطع على الرجل لحظات شروده وتأمله، فتوقف برهةً ثم استدار عائداً، حينها برزت له أم طه من حيث لا يدري.

أشارت له ليدنو من قبرها. ففعل.

لم يكن هذا غرضه، كل ما أراد هو أن يزيح عن صدره شيئاً من الضيق، أو يمنح روحه فرصة للذهاب بعيداً عن دوامة الصمت، لكن دون أن يقصد، وجد نفسه يصغي لحديث لم يكن بوسعه تفاديه. حين وصلها، طلبت منه الجلوس بقربها ثم قالت له بثقة: "إياك أن تُنكر أنك ما زلت تفكر في الحديث الذي خضنا به قبل مدة. أتعلم، لم أكن لاعترض طريقك الآن، أو أطلب منك القدوم في وقت كهذا، لولا أنك الوحيد الذي ضيّق المسافة مع حسّان من غير أن ينوي ذلك، ماذا لديك دوناً عمّن سبقوك ليقترب منك حسّان كل تلك المسافة؟".

فاجأهُ حديث أم طه، ظنَّ أن خوفها على حسّان وهوسها بكل ما يمت له بصلة، قد دفعها لتوهم أشياء لا وجود لها.

قال لها: "يا أم طه، أنت تعلمين ولا شك أنني لم ألتقيه، لم أر وجهه ولا أعرف عنه شيئاً، كل ما بحوزتي عنه، هو ما سمعته منك أنت بالتحديد، فكيف لي أن أفعل كل هذا؟ من أين جئت بهذا يا امرأة؟ أرجوك دعيني وشأني، أخرجيني من ولعك هذا بحسّان، لدي من القلق ما يكفي". ردّت وقد بدت أكثر ثقة هذه المرة: "كيف أفعل ذلك، وكنتُ شاهدةً على ما جرى بينكما!".

استرعى حديثها انتباهه، فسألها على الفور: "شاهدة على ماذا؟".

أجابت: "أتذكّرُ أيامك الأولى هنا؟ حين استضافك الفضيل في قبره، يومها طلب من نسوة المقابر الاعتناء بك وبجروحك النازفة، لأيام ثلاثة لم تغب عن عيني. كنتُ أراقبك من بعيد لأن الحزن الذي أطلّ من وجهك كان له مفعول السحر علي، في ثاني يوم لك في قبر الفضيل، وبينما غادرت نسوة المقابر، جلستُ وحيدةً أراقبك، شرد عقلي في أشياء كثيرة، لكن حين عاد لي تركيزي ودققتُ النظر في المكان الذي كنت تتمدد فيه، رأيتُ حسّاناً يجلس قرب حافة القبر، ويتطلع نحوك باندهاش!".

فاجأةً قولها، لم يكن يشعر بأن أمراً كهذا قد حصل، لعل أيامه الأولى شهدت على ما يبدو الكثير من الخلط والتداخل غير المفهوم. كانت تتحدث بسرعة، وكأنها تريدُ أن تقصَّ عليه ما جرى قبل أن يسمعها أحد. أضافت وقد صار كلامها أكثر همساً: "أنا لم أبح لأحد بهذا، لا تسألني عن السبب، أنا نفسي لا أعلم، ربما خوفاً على حسّان أو الفضيل، لكن الصدق لو قلت لك أن كل هذا الحزن الذي يبللُ عيني الفضيل، هو بسبب حسّان، أنت تعلم ولاشك، أن لا شيء يكسر قلب الأب كشرود ابنه، كصمته وعزلته".

ليتني أعلم، قال في نفسه، ليت الحياة قدّرت لي أن أرافق صغيراً يكبر ويجتاز سنوات عمره سنة بعد أخرى. من أين خرجت أم طه في هذه الساعة بالذات لتقلب ماضياً لا ينفك يتحايل عليه! ماذا سيقول لها الآن؟

أيدفعها للمزيد من البوح، أيعرف منها أكثر عن حسّان؟ أيصغي للمزيد، أم يمضي صامتاً باتجاه مغاير!

أتستطيع امرأةٌ في سنّها أن تحتمل وجع قصته، لو قرر هو الآخر أن يزيح شيئاً من الثقل الذي استقر طويلاً فوق صدره؟

كان كلاهما يفكر بينه وبين نفسه، بينما صفيرُ الريح يزداد ضراوةً.

هي تريد أن تدفعهُ للقيام بشيء ما، أما هو فغاية ما كان ينشد، حديثاً من القلب لرجل أيقن أن باستطاعته النفاذ لداخله، لكن ذلك لم يحصل، بل انتهى به المطافُ مصغياً لبوح موجع. تركها مصطفى تحكي بينما راح عقله يعدو بخفة نحو الماضي، فيركّب مشاهد هشة، ويحلّق به في خيالات لم يعد يقوى على السيطرة عليها. بعد شيء من التردد، قرر هو الآخر أن يتخفف من ماضيه، فعزم أمره على مشاركتها بعضاً من وجعه.

كانت رائحة الأم التي طالما افتقدها، تفوح من أطراف أم طه فتعيد إيقاظ حواسه مجدداً، أخذ نفساً مثقلاً بالتراب وقبل أن يشرع في الحديث، عاجلته بالقول: "وصل الفضيل إلى هنا قبل حسّان بفترة لا بأس بها، بدا عليه الشرود دوماً، كأنه كان ينتظر قدوم أحد ما، حين قُدّر لحسّان أن يأتي، كان الفضيل وحيداً في انتظاره، لم يكن أي من ساكني المقابر لينسى ذاك

المشهد الذي عاد فيه إلى المقابر، وهو يمسكُ يد حسّان ويمسّد على رأسه".

باحت أم طه بشيء مما لديها، قالت له إن نظرة الخوف التي سكنت عيني حسّان لحظة وصوله، أبكت الجميع، أما زغب الموت على بشرته، فما يزال طرياً. مذّاك، لم يقترب من أحد، لم ينطق، لم تعرف الابتسامة طريقها إلى شفتيه.. بدا على الدوام شارداً، خائفاً، كأن ملك الموت باغته وسرق منه الحياة عنوة. ظل فترة طويلة ملتصقاً بالفضيل، لا يفارقه، لا يبتعد عنه لخطوة واحدة، لكنه صار شيئاً فشيئاً أكثر ميلاً للانطواء والعزلة.

هدأ صفير الريح فجأة، تغلغلت العتمة في زوايا المقابر، وسكن الغبار الذي طاف على حواف القبور، فيما تعيد أم طه حياكة تفاصيل جرت وكانت شاهدةً عليه.

قالت له لا أذيع سراً لو قلت لك إن كثيرين حاولوا الاقتراب من حسّان أو جرّه للحديث، جربوا معه كل شيء، حاولوا لفت انتباهه، التودد إليه، قدموا له أشياء لا تخطر على بال، منهم من تصرف من تلقاء نفسه، ومنهم من رجاهُ الفضيل القيام بذلك. لكن كل هذا مرّ دون أثر، كل ما قاموا به لم يكف لمحو تلك النظرة الجنائزية التي ما زالت تعلو وجهه. لم يساعدوه على تجاوز الصمت الذي غرق وأغرق الجميع به.

"أتعلم يا ولدي"، أضافت وقد بدأ صوتها يختنق هذه المرة: "ألقى هذا الأمر في نفس الفضيل ألماً جديداً، أتصدق لو قلت لك بأنني كثيراً ما وجدته يبكي فوق قبر حسّان! لعلي الوحيدة التي أتيح لها معرفة أمر كهذا، كان الفضيل بانتظار قدومه، كان يخرجُ لأطراف المقابر مترقباً وصوله، لكن حين جاء، وبدل أن يضفي شيئاً من الطمأنينة عليه، جلب له ألماً لا يعرف كثيرون قسوته واتساعه".

لمس حديثها شيئاً في نفسه، خصوصاً حين أخبرته بأن الفضيل قد فعل ما بوسعه ليثني حسّان عن صمته وشروده، في مرات كثيرة كاد يسلّم أمره لليأس، ولم يكن ليعيد لنفسه شيئاً من عافيتها، سوى تلك الكلمات التي وصلته يوماً من عرّافة المقابر، التي بحث رسول لها عن قبر الفضيل، وحين وصله، لم يمكث عنده طويلاً، بل قال له قبل أن يغادر على عجل: "لدى العرّافة شيءٌ تود أن تطلعك عليه. ستكون بانتظارك عند الباب الشمالي للمقابر".

لا يعلمُ مصطفى للآن لماذا تصرُّ أم طه على زجّه في أمر لم يكن في الحسبان! لكن ما يعلمه جيداً هو أن ما جرى له خلال تلك الفترة الوجيزة التي قضاها بينهم، فاق كثيراً ما عايش من أحداث طوال سنواته الماضية، لكن إلى أين تريد أن تمضي به أم طه! وهو الذي لم يعر التفاصيل يوماً الكثير من الاهتمام! أيقوى حقاً على المضي في منمنمات هذا العالم المربك، الذي وجد به عزاءاً من قهر الزنزانة وقسوتها!

أضافت بعد أن أيقظت جميع حواسه لسماع باقي الحكايا: "أراد الفضيل لحسّان أن يرافقه، ثم عدل عن ذلك آخر لحظة فعهد به إلي وقرر المضي وحيداً.. المهم أنه زارها وجلس إليها، عندما عاد أخبرني بعضاً مما جرى. قالت له أشياء أربكته، وحين همَّ بالخروج، ناولته شيئاً في يده وقالت بطمأنينة: "تذكّر جيداً، لن يكسر صمتهُ سوى رجل متعب، يأتي المقابرَ وحيداً".

لم تُخف أم طه شيئاً من الحكاية إذن، رغم أن معظم من يقطن المقابر بات يعرف نصفها على أقل تقدير. لكن ما بات معروفاً للجميع، أن الفضيل صار يجعل اللحظة التي ينبثق فيها قادمٌ جديدٌ، حدثاً مصيرياً ينتظره بفارغ الصبر.

ففي كل مرة يصلُ فيها قادمٌ للمقابر، يكون الفضيل في قمة ترقبه، وما إن تكتمل طقوس الوصول ويقرأ ملامح القادم، حتى يكون أمام وجهتين لا ثالث لهما: الاقتراب من تحقيق نبوءة العرّافة، أو المضي نحو خسارة جديدة.

كان مصطفى غارقاً في الإنصات، يفكر في كل التفاصيل التي تشابكت أمامه، ويحاول قدر استطاعته أن يربط بينها وبين ما جرى معه منذ أن وصل هذا العالم، وصار جزءاً من حكايته. وقبل أن يتاح لأم طه الاستمرار في سرد ما اطلعت عليه من الفضيل، عاجلها سائلاً: "أهذا إذن

استضافني الفضيل ثلاثة أيام في قبره؟ أيفعل ذلك مع كل واحد يتوسمُ الخلاصَ على يديه؟".

لم تعرف أم طه كيف تجيبه، أرادت أن تقول له الشيء الكثير، لكنها كتمت في داخلها ما استطاعت أن تكتم، ودّت لو تقول له كيف أن الأمر معه مختلفٌ عمّا جرى مع الباقين، هي نفسها تشعرُ بذلك، ودّت لو تكشف له شيئاً مما حصل سابقاً، حين توهمَ الفضيلُ مثلاً أن ياسين، يمكن أن يكون ذاك القادم المنتظر، فقد وصل المقابر وحيداً، وما أن رآه الفضيل حتى أشرقَ وجهه.

قرّبه الفضيل إليه، أجلسه عنده، وطلب منه مرافقة حسّان والتواجد دوماً معه، لكن حسّان نفر منه فور أن رآه، كان كلما حاول ياسين الحديث معه، شرد حسّان في صمت أعمق، لدرجة أن أحسّ الفضيل بهذا، فسارع على الفور للفصل بينهما.

"أهذا إذن استضافني الفضيل ثلاثة أيام في قبره؟ أيفعل هذا مع كل واحد يتوسم الخلاص على يديه؟"، أعاد السؤال مرةً ثانيةً بعدما تحاشت أم طه الردَ أول مرة.

تنهدت أم طه وشعرت بحرج موقفها. أشاحت وجهها خجلاً فرأت الفضيل يقف في العتمة ويصغي لما يدور. أربكتها رؤيته، نهضت دون

وهي منها، لم تعرف كيف تبرر له ما يجري، خصوصاً أنها لم تخبره من قبل بما أقدم عليه حسّان، يوم رأته ينظر باهتمام لذاك الممدد لأيام في قبر الفضيل.

تلعثم الكلام في فمها، حاولت تفسير شيء مما جرى، فأشار لها الفضيل بالصمت.

أما مصطفى، فنزل الأمرُ عليه كالصاعقة، شعر بالحرج لما بدر منه، حاول أن يداري وقع السؤال الذي خرج منه باستعجال، ثم فكّر في طريقة لتجاوز هذه الزلّة، والاعتذار للفضيل الذي لاح الاضطراب على محياه.

عاودت الريحُ قيامتها، ودار صفيرها في زوايا المقابر.

تكدّر وجه الفضيل، كان باستطاعة مصطفى أن يقرأ في عيني الفضيل نظرة مغايرة لتلك التي استقاها منه منذ أن وصل. من جانبها حارت أم طه فيما ستفعل، بأي وجه ستبرر للفضيل إخفائها تلك الحادثة، أما مصطفى فشبه الارتباك والحرج، فقد وضع الفضيلَ حتى الآن في موقفين جرحاه معاً قصد: الأول كسره الناموس كما أشاع ياسين، أما الثاني فتشكيكه في نية الفضيل وراء استضافته له في أيامه الأولى.

خيم الصمت وازداد ثقلاً، كان كل واحد منهم ينتظر الآخر ليبدأ بالحديث، بقي الأمر على حاله إلى أن دنا الفضيل من مصطفى، وقال له وهو يتطلع فيه بإمعان: "غالباً ما نعجزُ عن تقدير أهمية الأشياء التي لدينا، لا ندرك قيمتها، إلا حين نوشك على فقدها. تسألُ لماذا استضفتك وأحطتك بما أحطتك به؟ من حقك هذا، ومن حقي أن أحتفظ بالأمر لنفسي. ربما يكون لما قالت العرّافة دورٌ في ذلك، لا أنكر هذا، لكن بما أنني سمعت من أم طه ما سمعت توّاً، فدعني أخبرك بأنني قمتُ بهذا لأني بقدر ما وجدت في عينيك حزناً دفيناً، وجدت فيهما توقاً لشيء ما، هذا ما لم أره إلى الآن في عيني أي قادم قبلك".

قال الفضيل هذا ومضى وحيداً نحو وادي المقابر.

لام مصطفى أم طه على زجّه في موقف كهذا، خجل أكثر مما بدر منه تجاه الفضيل، تمنى لو استطاع اللحاق به ليعتذر له عن ذاك السؤال الذي فرّ منه دون أن يفكر في تبعاته. لكن ابتلاع العتمة للفضيل، حرمه من ذلك. لم يطق المكوث عند أم طه، قام على الفور وراح يبحث عن الفضيل بين القبور، دار على معظم الأماكن التي توقّع أن يجده بها، لكن لم يكن له أثر. حينئذ أحسّت روحه بانتكاسة تطل برأسها لأول مرة. عاد مجدداً للتمدد في قبره وكلمات الفضيل تحوم فوق رأسه: "فعلت هذا لأني بقدر ما وجدت في عينيك حزناً دفيناً، وجدت فيهما توقاً لشيء ما، هذا ما لم أره إلى الآن في عيني أي قادم قبلك".

أغرقته تلك الكلمات في صمت كاوٍ.

لكن عن أي توق كان يتحدث الفضيل! أيعقلُ أن يعيش رجلٌ أسير العتمة عشرة أعوام، وبعد أن تلفظه الحياة بكل هذا الرخص، يظل لديه ولو أدنى اهتمام بها!

سحبته تلك الحادثة نحو تفاصيل مُرّة، تناوبت على افتراسه كل ليلة من ليالي السجن. لم يكن بيده حيلة للوقوف في وجه القلق الذي بدأ ينهشه. أيسرُ ما يمكن للمرء أن يفعلهُ في مواقف كتلك، هو اجترار أحزان لا مسوغَ لتذكرها.

أطلَّ الماضي برأسه مجدداً، يا لهذا الماضي وعناده! طفت على روح مصطفى تلك الأحداث التي رافقت سنوات سجنه، راحت ترخي بظلالها القاتمة عليه، كاد يستسلم لتلك الوسوسات القاهرة التي شرعت في قضمه، لولا أن عاهد نفسه ذات مساء، على شيء لم يطلع عليه أحد. يومها وبعد أن عاد من جلسة تحقيق أدمت أطرافه، وبقعّت وجهه بالزُرقة، امتدت أظافره لجدران الزنزانة القذرة، وحفرت عليها عبارة، ظلت على الدوام تنشله من كل لحظة استسلام يمكن أن تباغته، كتب يومها: "لو قُدّر لي أن أخرج من هنا، فسوف أعيش حياتي مثلما أشتهي، لا مثلما يريدون".

ما حصل معه توّاً أعاده لسنوات خلت. نفس المذاق الذي اعتاده في تلك الزنزانة الكئيبة، راح يستحلبه الآن على طرف اللسان. احتشدت الذكريات المريرة في حلقه مجدداً.

في تلك الزنزانة التي كلما فارقها بخياله، عاد عقله المتعب ليزرعه في زاوية من زواياها. في تلك الزنزانة أمضى سنوات طويلة بانتظار شيء لا يعرفه، شيء يبدّلُ شكله وهويته في اليوم الواحد عشرات المرات، تارةً ينتظر الخلاص ويؤمّل نفسه به، وتارةً أخرى ينحيه جانباً ليفكر بشيء آخر أقرب للهرب. مرة يحتفي بالحرية ويكاد يسمع وقع أقدامها، وفي أحيان كثيرة حين يلوكهُ الوجع ويعاوده الصراخ، ويتفتق لحمه من شدة الألم، يرمي كل تلك الهواجس عرض الحائط ويفتح ذراعيه للموت باشتهاء.

الآن، ولسبب يجهله، تُفتح أمامه ستارةُ تلك الليلة التي قبّل بها خدّ الموت.

ففي دقائق معتمة آن للموت أن يسمع نداءَه، فخطى نحوه مجلّلاً بالرحمة. سحبوه يومها من جوف الزنزانة، اقتادوه عبر ممر ضيّق، مشوا أمامه بينما ظل أحدهم يراقب خطواته من الخلف، كان الوقت فجراً ونشوة النوم لا يقوى على الوقوف في وجهها جسدٌ مجهد، لم يكن ليعرف الليل من النهار، لكن ظل جسده يتحايل على كل الأشياء، وبقيت له القدرة على التنبؤ بالفجر والتهيؤ له.

تناولوه كخرقة بالية يمسحون بها نزقهم وشيئاً من خطاياهم.. كان الدفء قريباً منه، وكان باستطاعته سماع المطر ينقرُ بضجر على أشياء كثيرة حوله، لم يحظ من الشتاء الذي أحبه بغير وجهه البائس، الغارق في القسوة والبرودة.

بعد أن أسند جسده إلى حائط متشح بالسواد، مشى حافياً وتأبط نعله بحركة صار يأتيها دون وعي منه، خطى في ممرات رطبة وموحشة، كان يصطك من لسع البرد ومباغتته، لم يعرف إلى أين ساروا به، لم تعد عيناه للفهان الضوء أو تتحسسان موقعه. خيّل إليه أنه يسمعُ من جديد، عواء ذئب يتردد صداه بين الجدران.

ما يذكره الآن هو أنهم أدخلوه غرفة لا تشبه باقي الغرف، ما إن وضع قدمه فيها حتى هجمت عليه روائح البول والدم والخوف، خليطٌ بدا وكأنه أعدّ خصيصاً للترحيب به، حاول تفادي تلك الروائح التي كانت تسبح في هواء عفن، لكن فداحة حضورها كادت تطيح به.

حاول إغلاق أنفه، لكنه لم يفلح في تحاشي ذاك الاقتحام المباغت لتلك الروائح، التي تغلغلت رغماً عنه في كل خلية من خلاياه.

تركوه في منتصف الغرفة وغابوا قليلاً، تلفّت حوله فلم تمنحه العتمة فرصة للتنبؤ بشيء، لكن وسط هذا كله تنبهَ لرائحة مختلفة تداعبُ أنفه

لأول مرة، فمن بين تلك الروائح التي اعتادها وعايشها سنوات طوالاً، عثر لأول مرة على رائحة باهرة، ليست رائحة الخوف التي اختبرها طويلاً، بل أقرب لشيء طافح بالرحمة.

حاول الاستيقاظ من كل كوابيسه، فأدرك حينئذ أنه مقبلٌ على شيء مختلف.

كانت خيالات الضوء المتجوّلة في الغرفة، والتي تسربت من باب جانبي فُتح على غفلة، لا تساوي عزيمة شمعة. من ذاك الباب دخل رجلان، تقدما نحوه وحين صارا بقربه، دلقا عليه من حيث لا يدري، كمية هائلة من الماء البارد، صفعته برودة المياه، انسكبت على جسده وراحت تعضُّ أطرافه بنهم، شهق ثلاث مرات حتى كاد يتوقف قلبه، عندها راح يصرخ بقهر كالمجنون، ثم تهاوى على الأرض.

حين أفاق من شيء أقرب إلى الغيبوبة، كانت خيالاته قد شقت طريقها نحو عالم آخر، بينما قطرات الماء تنزّ من ملابسه، وتكاد تتجمد من شدة البرد. كان يشعر بالهواء وهو يشقُّ على مهل، مساحات واسعة من جسده المكشوف. لم يكن باستطاعته أن يحرك أي من أطرافه، تيبّس كل شيء فيه.

بين الحلم واليقظة راح يسمع صوتاً يخاطبه؛ يهذي بأشياء لم يعد يعرها أي اهتمام، هو ذات الصوت الذي رافقه طوال تلك السنين، لكنه مختلفٌ

هذه المرة، تداخلت الأصوات في عقله المنهك، ظن في لحظة ما أنه صوت اعتراف متأخر لجلاد يحاول أن يرمم علاقته بالحياة، أو لعله رنين أسئلة ما زال تبحث عن إجابات، حاول أن يصيخ السمع لكن عقله لم يطاوعه، كان الأخير مفتوناً بشيء آخر.

كان يقتفي أثر تلك الرائحة الفاتنة التي بهرته.

راحت حواسه تستدرج تلك الرائحة وتجمعها على مهل. استطاع رغم كل ما به، أن يفرز تلك الروائح المتداخلة، وينحي تلك التي زكمت أنفه لسنوات طوال. ظل يستدرج رائحةً لذيذةً بعينها، يلملم شذراتها ويكتم عبقها في صدره، وحين أحكم قبضته عليها، أدرك عندئذ أن جسده يشتم لأول مرة، رائحة الموت.

* * *

الفصل الرابع

حتى هذه اللحظة لم تكن قد أتيحت له فرصةُ رؤية حسّان أو الاقتراب منه، صحيحٌ أن كل ما سمعه عنه للآن قد أثار فضوله، لكنه خشي في قرارة نفسه، من تبعات تلك المهمة التي أنيطت به دون أن يسعى إليها. لم يكن يدرك أن مفارقته سنوات العزلة، وغيابه المفعم بالصمت عن تلك الزنزانة البائسة، سيدفعانه لاكتشاف عوالم كالتي تتربص به.

كان يشعر أن الفضيل يترقب الخطوة التي سيقدم عليها، أو على الأقل ينتظرها بلهفة. لعلّه يراقبه عن بعد، أو ينيب من يرصد حركته ليرى إن كان رهانه على هذا القادم الغريب، سيجدي نفعاً.

في بادئ الأمر فكّر في معاودة الحديث مع أم طه، فقد يسمع منها شيئاً يعينهُ على فهم عالم هذا الصغير الذي شغل باله، لكنه عدل عن ذلك. استرجع عقله مجدداً الحادثة التي روتها لها، وكيف أن حسّاناً جلس فوق حافة القبر وراح يتطلع إليه، حينها تسرّب إلى نفسه حزنٌ غامض، حزنٌ

على نفسه وعلى الصغير، وفوق هذا وذاك على الفضيل الذي يراهنُ دون أن يدري، على حصان خاسر.

نهض من قبره بتثاقل، مشى بعيداً عن صف قبور امتدت أمامه بلا نهاية، انحرف شمالاً وسار طويلاً، تناول عوداً يابساً وجده بطريقه وراح يعبث به بغير اكتراث. لعلها أول مرة يبتعد فيها كل هذه المسافة، تطلع حوله فلم ير أحداً، مالت السماء لشيء من الكآبة، وثارت في الأفق البعيد زوبعةُ غبار راحت تتقدم ببطء.

لا شيء يفضُّ هذا الصمت سوى جدجد مختبئ، يشاكس العتمة بإصرار. وذئب يصرُّ على معاودة التحرش به وقضبان زنزانة صدئه ترافق خياله أينما ذهب. لم يكن مصطفى يفكر بشيء محدد، لعل سؤالاً واحداً ما يزال يحفر في داخله؛ كيف لرجل عاش وسط الخوف والألم كل هذه السنوات، أن ينفذ لقلب طفل صغير وينتشله من صمته وشروده؟

جلس على حجر خشن، وراح يرسم على التراب المحيط به أشكالاً لا معنى لها. قال في نفسه: "أيعلمون أن هذا القادم نحوهم، المثقل بالخيبات والحنين، لم ير طفلاً واحداً منذ أن صفّدوا يديه ووضعوا العصابة على عينيه، لم يتح له لأكثر من عشرة سنين أن يرى زوجته أماني، أو أي شخص آخر". هذا الشعور سرّب نتفاً من الحزن إلى نفسه، أحسَّ خلسةً بطعم المرارة، فخبت في روحه شعلةٌ كانت على وشك الاتقاد، لكن قبل أن

يمضي مع شعور الخدر ذاك، رمى العود اليابس الذي كان يعبث به، ونهض على الفور.

قرر في داخله ألا يذعن لهذه المتاهة التي يساقُ إليها مرغماً، الفضيل، عزالة المقابر، حسّان، أم طه، ياسين، ساكنوا المقابر الآخرين، جميعهم على ما يبدو يترقبون ما سيصدر عنه. أما هو فرمى كل تلك الهواجس وراء ظهره، وقرر كما عاهد نفسه ذات مرة، أن يعيش كما يشتهي، وأن يعوّض خساراته قدر ما يستطيع.

أول شيء فكّر فيه، هو قهر هذه العتمة التي تبتلع كل شيء هنا.

في أيامه الأولى بالسجن، لم يكن يتألم من شيء، قدر ألمه من عتمة اهرلوه بها، أمضى ليالي طويلة يلوكُ العتمة ويطحنها تحت أجفانه، يمتصُّ عدرها على مهل، يحاول مجاراتها لكن دون جدوى. لا حدَّ للظلام الذي غمروه به، ساح على كل شيء وطلاه بالأسود. كان يهربُ من الظلمة، يبحثُ عن أي ضوء ليتعلق به، يقنعُ نفسه بأن هذا الأمر مؤقتٌ ولا بد أن يزول، بقي على ذلك، حتى أيقن أن للعتمة نفساً طويلاً لا يقوى على مجاراته، حينها أدرك أن لا شيء يقهرُ العتمة كالألوان.

لم تعد عيناه تلتقطان شيئاً غير الأسود، بهتت الألوان الأخرى في عقله، فقدت بريقها ولذّتها. اضطرب ذهنه، ضاقَ صدره حتى كاد يختنق من

شحّ الضوء لا من قلّة الهواء، طرحه صداعٌ استقر في رأسه بصلف، كان مضطراً للصراخ لكي يأتي له أحدهم بحبة دواء، أو أي شيء يخففُ الألم الذي ينخرُ جمجمته، لكن لم يلتفت إليه أحد، نام طويلاً، وعندما استيقظ، وجد كل شيء على حاله. حينها فتح عينين جديدتين وعزم على مواصلة الحياة بشكل مغاير.

قال حينها في نفسه إن لم أستطع أن أصنع لنفسي عالماً ملوناً، فسأصاب حتماً بالجنون، سينهشني اليأس ويقضي عليّ. لا بد من طريقة ما، لابد.

اهتدى عقله إلى حل مدهش، راح يتذكر الألوان ويمنحُ لكل واحد منها مذاقاً خاصاً. استرجع ما خزنته ذاكرته، وصار يخصص لكل لون ساعة للتذكّر والتذوق. في الزنزانة لا وقت ضائع يتحسر عليه، لديه فائض من الوقت الذي قد يحتاجه، لذا راح يستدعي كل لون على حدة، فخصص وقتاً للأحمر وآخر للأزرق والأصفر وهكذا.

بدأ أول ما بدا بأكبر الأشياء وأكثرها شفافية. ففي الأوقات التي يستدعى فيها الأزرق، يستله بخفة ومهارة من بين الألوان، فيتذكر كل ما في الكون من زرقة حتى لا ينسى طعم اللون وحدّته. أما عندما يحين وقت الأخضر، فينحي جانباً كل لون آخر، ويعيش في كنفه ووداعته.

حين أتقن هذا الشرود والتحليق في عالم اللون وبهجته، راح أبعد من هذا، صار يتسلى بمزج الألوان وابتكار ألوانه الخاصة، كمن يلّون لوحات بيضاء تُطلى في مخيلته. شغله هذا الأمر طويلاً، أدخل شيئاً من البهجة لروحه القلقة، أعاد لعقله شيئاً من يقظته، كان يعلم في قرارة نفسه أنه ليس من السهل خداع العين أو تضليلها.. لو لم تتواطأ معه وتقف في صفه، لفقد إحساسه بكل شيء.

في هذه المقابر، عليه أن يناور العتمة مجدداً، عليه التفكير في طريقة ما لحصار عالم الموت الكالح، الذي يُبهتُ كل شيء يحتك به.

شعر بأن ثمة من يتعقبه، تلفّت حوله فلم ير أحداً. دار طويلاً حول المكان الذي وصله، ثم قطع مسافة أطول من تلك التي عزم أمره على قطعها. حين وصل أطراف المقابر، فتّش في زواياها، نفض أكواماً من التراب تراكمت فوق مخلفات يراها لأول مرة، قلّب حجارة تناثرت دون نسق، كان يبحث عن شيء ما، شيء يشرخ العتمة، ويخرج من رحمها قوساً من الألوان.

في وادي المقابر، وجد ضالته.

بعد بحث مضن وجد أشياء كثيرة لم تخطر له على بال، رتّب عقله كل ما عثر عليه، لكن حينما رأى عدداً من الشموع ملقاة قرب قبر مهمل.

خفق قلبه بشدة وكاد يقفز من الفرح. تناول الشموع وجسّها برفق، نفخ عليها ونفض عنها التراب، ثم خبأها بحرص وعاد بها مسرعاً.

في طريق العودة، لم يكن ثمة شيء جديد، الشحوب ذاته يخيم على المكان ويدس أنفه في كل شيء.

كان يخفي الشموع تحت إبطيه بحرص بالغ، ولحظة أن وصل قبره، عدّل الحجارة التي عبث بها أحدهم في غيابه، ثم راح يتأمل الشموع مجدداً. وبعد أن كنس شيئاً من رماد تجمع في الزوايا، غرس أصابعه في التراب الناعم الذي يسد الفجوات بين الحجارة، وتناول بخفة مسماراً ملتوياً كان قد عثر عليه من قبل.

يذكر جيداً كيف ظلّ المسمار لسنوات طويلة، صديق زنزانته الوحيد، فيوم نقلوه لزنزانة أقذر من تلك التي احتوت سنواته الأولى، عثر وهو يتحسس اسمنت الأرض، على مسمار صدئ، كان بالنسبة له أقرب لتركة قيّمة أوصى له بها نزيل سابق. تناول المسمار بشيء من الدهشة، دفأه براحتيه، وأزال عن جسده الصدأ الذي كان قد نهشه بقسوة.

الآن يعود المسمار ليقف في صفّه، ليعقد معه صداقة جديدة، ليمضي برفقته في مشوار آخر في هذه المقابر المقبلة على عوالم لا يعلم عنها أحدٌ شيئاً. قبضت أصابع يده اليمنى على المسمار، وراح يحف بيد خبيرة جسد

كل شمعة. كان يشعر بالكثير من النشوة، وهو يقشّر رأس كل شمعه بحذاً عن الفتيل الذي ما إن أطلّ برأسه، حتى سحبه بحذر، وفركه برفق لهيداً لإيقاده. وعندما جهّز الشموع جميعها، نصبها واحدةً تلو الأخرى فوق حجارة القبر وأوقدها معاً.

قبل أن يشعّ في المقابر نورٌ لم يعتادوا عليه، شعّ في داخله شيءٌ افتقده طويلاً.

كان يمرُّ بعود الثقاب على فتيل كل شمعة، وكأنه يفتكُ بعتمة لحاصمته طويلاً. غمره النور بإحساس دافئ، رسم على وجهه دون أن يشعر ابتسامة رائقة، كانت خيالات الضوء الآتية من اشتعال الفتيل ولذوبان الشموع، تنعكس بسحر على القبر والمساحة المترية التي تمتد أمامه. بهره هذا الأمر، بقدر ما جذب إليه كل من كانوا يراقبونه بفضول.

ما إن بسط الضوءُ سيطرته على المكان، حتى سرى في القبور المحيطة دبيبٌ أثار انتباهه. ما هي سوى لحظات حتى بدأت خيالات القادمين للشكل أمامه بوضوح. كان يقرأ البهجة في عيونهم، وكأنهم يشهدون عنده حدثاً لم يعتادوا عليه.

لحلال فترة قصيرة، كان قد تجمع عند قبره العشرات، جذبهم ضوء الشموع التي صارت في أوج فتنتها، فالتفوا حوله كفراش أضاع عمراً في

الفراغ. راح يدقّقُ في الوجوه القلقة التي منحها الضوء شيئاً من الصفرة. كانت تلك أول مرّة يجتمع فيها بعدد كهذا، أربكه الموقف فهو لم يعتد مثله في سجنه، لكنه تغلّب على خوفه، لحظة أن قرأ الطمأنينة التي علت الكثير من الجباه.

دعاهم للجلوس فاتخذ كل واحد مكانه.

كعادة الغرباء حين يلتقون لأول مرة، ساد الصمتُ قبل أي شيء، ثم في لحظة بدت للجميع أقرب لشرارة اشتعل على إثرها الحديث، قالت له سيدةٌ يرى وجهها لأول مرة: "لم نكن نعلم أن في المقابر شموع.. أو أن ضوء الشموع يمكن أن يتسلل خلف ستار الموت، لكن ألا تكفينا شمعةٌ واحدة؟ أمن الصواب أن نراهن على كل هذا الضوء، أو أن نذيب كل الشموع في جلسة واحدة!". أضاف رجل جلس بين شمعتين: "لا أجمل من أن تقطف المتعة وتتحسر على ضياعها لاحقاً.. هل كنا نؤملُ النفس بشيء كهذا! كيف تسنى لك أن تفكر بهذا يا رجل!".

صاح آخر: "كيف لمن خبر كل هذا الضوء أن يقبل مجدداً بالعتمة؟ هات المزيد من الضوء، هات". قال رجل وصل توّاً: "حين تساوت عندي كفّتا الحياة والموت، كان من الحكمة حينها أن أمضي باتجاه الموت. لكن دعكم مني، لنحتسي النور ونغرق في فتنته".

لم يعلّق مصطفى بشيء، كان يبتسم في وجوه الحاضرين وكأنه يستل منهم بوحاً دفيناً.

من بعيد، سأل شابٌ بدا على محياه الضجر: "أليس الموتُ نهاية كل شيء؟ فما جدوى أن نتحرش بغيره الآن؟ أليس الضوء جزءاً من كينونة الحياة! فما قيمة الجزء إن كان الكلُ قد آل إلى زوال". ران الصمتُ من جديد، نهض رجل وجال ببصره على الجميع ثم قال بصوت موجوع: "لم أجد في الضوء غير ألم في العينين، أأنا ميتٌ حقاً؟ أين نحن الآن؟ كيف اجتمعنا هكذا؟ ماذا أفعل هنا! وإلى أين سأمضي، فليجبني أحدكم". ارتفع صوت من بعيد: "أتظنون حقاً أن شمعةً واحدةً قادرةٌ على أن تغتال هذا الفراغ الموحش، الحياة لا تولد على فتيل شمعة.. مجانين".

قال عجوز أسند ظهره إلى حجر: "من استطاع أن يجد شمعة باستطاعته أن يجد السعادة. أيمكنُ لي أن أحظى بواحدة لقبري، لم أكن أعلم أن العتمة ستفرُّ بمثل هذا الجبن". صاح صوت نصف مألوف: "لا جدوى صدقوني، لا جدوى. ها أنا أحذركم من الآن، الأذى يأتي من الآخرين، لقد قلت هذا مراراً، لا يمكن لعاقل أن يؤذي نفسه".

تداخل الحديث بين الحضور، علت الأصوات وسالت على حواف الدموع أسئلة كبرى، ظلت فترة طويلة حبيسة القبور. كان مصطفى يراقب ما يدور حوله باهتمام بالغ، فهذه هي المرة الأولى التي يستمع فيها

لحديث كهذا. راودته نفسه بالمشاركة، لكنه آثر كعادته الصمت والإنصات.

فجأة، وقف رجلٌ ناحلٌ عُرف فيما بعد بشاعر المقابر، قال موجهاً كلامه للجميع بعد أن جذب انتباههم بوقفته الصارمة، وصوته العميق وموسيقى الحروف على شفتيه، قال سأكشفُ أمامكم وللمرة الأولى عن قصيدة، نعم قصيدة نظمتها عقب وصولي إلى هنا، لا أعرف لماذا خبأتها كل هذه المدة، ربما توهمتُ أن الشعر لا يمضي أبعد من حافة القبر، بل يتخلى عن صاحبه ويجازف بتركه وحيداً، لكني أدركتُ الآن أن الشعر أكثر مكراً مما نظن، أيقنتُ بما لا يدع مجالاً للشك، أن نَصلَ الشعر باستطاعته أن يحزَّ رقبة الموت. هاكم ما كتبت:

"في هذه المقابر
لا أبوابَ تلجمُ الخوف
لا مفاصلَ صدئة، يوقظُ صريرُها هذا الصمتَ الغافي بكسل
لا عُشباً يُباعدُ بين الفصول.. أو يُشبعُ نهمَ المواسم
لا أنثى تحجلُ ورائي وتُقصّرُ المسافةَ.. خطوتين
لا امرأةً تكشفُ للريح عن ساقين من البلّور
في هذه المقابر
لا عصافيرُ تزقزقُ، فينمو بين النور والعتمة شيءٌ أقربَ إلى قوسِ قزح
لا شيءَ يطفئُ عطشَ الخوابي.. ولا أحدٌ يبحثُ عني إلاّي

لا غصن أخضر يمكنُ أن يسندَ شيئاً من كهولة اليباس
ولا مرايا تبينُ لي خطاياي
أيها الموتْ.. يا أنتْ
علّق على مشجب العتمة معطفك
رُشَّ مزيداً من الملحِ على جسدي، وافرك نزقكَ في هاتين العينين
امض فوق تابوتي الخشبي
دُقَّ إن استطعتَ، وشمكَ فوقَ يدين عاريتين
لم كُفَّ عن الانتظار
أو ارحل دونَ أن تلتفتَ ورائك
فلا مكانَ لكَ بينَ الأموات
فالموتُ كما وشوشتني العتمة، لا يُكررُ نفسهُ.. مرتين".

صفقوا بحرارة، بينما صاح رجلٌ بصوت أجشّ وهو يفرُّ من أمامهم: "ويحك يا هذا.. كيف تخاطب الموت بمثل هذه الرعونة".

داهمهم صوت رجل وصل توّاً: "إنه فخٌ نصب لنا، من هذا الذي يحدثُ فينا أمراً لم نعهده؟ بأي وجه حق يضيء عتمة المقابر، العتمة قدرنا وأنتم تعبثون بالأقدار". ردّ عليه رجل بحدة: "لا شأن لك بنا.. إما أن تجلس، أو تمضي في حال سبيلك".

لم يشاركهم مصطفى الحديث. كان ينصت ويفكر في أمر هذا الجمع الذي لا يعرف حتى الآن كيف تشكّل أمامه، ثم خطر له أن يبحث في وجوه الحاضرين عن شخص بعينه، شخص ظن أن حدثاً مثل هذا قد يأتي به. تفرّس مجدداً في الوجوه التي تكاثرت حوله والتي لم يرها من قبل، دقّق ملياً لكن لا وجه لطفل بينهم، حينها، أحسّ بشيء يتحرك داخله ويدفعه للنهوض، أنصت للصوت الذي بدأ يهمس بداخله، ودون أن يشعر امتدت يده لشمعة صغيرة، حملها بخفة وتسلسل بها بعيداً عن الحضور.

حين عاد، استمع للكلمات التي تبادلها الحضور، خصوصاً حين احتد البعض وتناثرت فوقهم قطع حجارة لم يعرف من أين أتت. كانت تلك أول مره تشهد فيها المقابر حدثاً كهذا. تقاطر آخرون لرؤية ما يجري، علت الأصوات وساد الهرج، بدا واضحاً أن شيئاً ما قد وقع بين من شهدوا حادثة الشموع كما أسموها فيما بعد.

وصل الأمرُ للفضيل.

كان عائداً للمقابر وقد بدا الإنهاك على وجهه. من بعيد، شاهد بقعةً تلمعُ وسط المقابر، غيّر دربه واتجه ناحيتها، لكن قبل أن يصلها، كان ياسين قد اعترض طريقه والضيقُ باد على وجهه. قال للفضيل بحنق: "لا ندري إلى أين يريد أن يمضي بنا هذا القادم الذي جعلته جاراً لك، لم يرق لي منذ لحظة وصوله وأنت تعلم هذا جيداً، انظر ماذا فعل، لابد من إيقافه

عند حدّه. لا يخفى عليك أننا لم نعتد شيئاً كهذا من قبل، نحن نأخذ الأمر على محمل الجد، وبذات الوقت نثق بحكمتك ورجاحة عقلك، لذا سأضع المسألة هذه المرّة بين يديك. لقد فرّق بفعلته هذه بين الناس، والفرقةُ كما تعلم، بداية الأذى. ألم تقل ذات مرة إن مَن يؤذي شخصاً واحداً، يصبحُ خطراً على الجميع!".

رمقه الفضيل بنظرة تنمُّ عن ضيق واضح، بينما أكمل ياسين حديثه وهو يسير خلفه.

حين وصلهم الفضيل ومن ورائه ياسين، كانت الشموع قد أضفت على القبر والمجتمعين حوله منظراً مهيباً. أفسح الموجودون للفضيل مكاناً قالترب أكثر. صمت الجميع وسكنت الحركة، وحدها رؤوس الشموع المشتعلة ظلت تتراقص بحذر.

نظر الفضيل في الوجوه التي بانت في قسماتها ملامح يراها لأول مرة، صمت برهة، وقعت عيناه على مصطفى الذي شعر بالإرباك مما فعل. حينها قال الفضيل وهو يلتفت لياسين وثلة من الرجال التفّوا حوله: "أالقلقون من رجل أم من شمعة؟".

لم يجبه أحد، غرس الجميع عيونهم في التراب، ثم نظروا في وجوه بعضهم البعض، وكأن السؤال أيقظهم من غفلة. أعاد الفضيل السؤال

وبحدة: "أتقلقون من رجل أم من شمعة؟ عندما تختلفون حول رجل فهذا أمرٌ مرده لطبائع النفوس، أما حين تهابون شمعة، فذلك نذير خطر.. لا أدري لم كل هذا الهياج! لا أرى أمامي سوى نور، ولا يمكن للنور أن يؤذي أحداً".

ثم تركهم ومضى إلى قبره.

انسحب بعد ذلك من لم يرق لهم ما جرى، أخلوا أماكنهم ومضوا، بينما بقي آخرون يمتصون ضوءاً فاتناً نثرته الشموع بخفر. أطال الجالسون المكوث، شعروا بلذة الحديث وفتنة اللقاءات الأولى. طفت على وجوههم مسحة من الراحة، وراحت الحواجز التي شيدوها حول أنفسهم- من فرط خوفهم وانعزالهم- تتصدعُ على مهل.

في بادئ الأمر، تحرّج بعضهم من الحديث؟ كان صعباً عليهم اجتياز كل هذا الصمت الذي عشش بينهم، لكن حين رقّت النفوس، سرت الوشوشات، وعلت الأصوات، وتداخلت حكايا راحوا يتبادلونها بنهم.

لأول مرة تولد في المقابر ضحكات خجلى. كان وقع تلك الضحكات شديد الأثر على مصطفى الذي كان يغيب في حالات شرود عميقة، تُباعد بين العالم الذي يبحر فيه بلذة، وقهقهات الجلادين بكل ما فيها من سخرية وقسوة.

كسرت تلك الضحكات، التي كانت ترنُّ بين الحضور، شيئاً من الجمود الذي خيم طويلاً على المكان. قال رجل اتكأ على حجر قريب: "اسمي صلاح، لأول مرة أعلم أن باستطاعتي أن أتكلم، أرهقني الجلوس صامتاً ووحيداً، لا شيء أفعله منذ أن وصلت إلى هنا غير الانتظار والنظر في الفراغ. الكآبة نخرتني والتراب والرماد عكّرا علي. أعلمون، كنت أظنُ أن الصمت قدر من يصلون إلى هنا، أقنعت نفسي بأنني غير قادر على الابتسام أو الحديث أو حتى الشكوى، إلى أن اجتمعنا هنا، صحيحٌ أن أحداً لم يطلب مني ذلك، لكن حين نظرت حولي ووجدت الجميع قد أحاطوا أنفسهم بسياج من الصمت والانطواء..." قاطعه رجل على الفور: "قلتَ حينها في نفسك كما قلتُ أنا، إن هذا سمت من يقبعون هنا، وليس لرجل قدم توّاً أن يخلخل للجميع ما اعتادوا عليه. أليس كذلك؟".

قالت فتاةٌ فاحت من وجهها رائحة الصبا: "أف..لم أجد في المقابر سوى حواجز تفصلنا عن بعضنا البعض، أين كنتم، كأني أراكم لأول مرة".

أضافت سيدةٌ وهي تزيل شيئاً من التراب عن غُرّتها: "معكم حق، هذا ما حصل معي أيضاً. شعرت بينكم أنني أشيد الكثير من الجدران، والقليل من الجسور، على كل حال لم أكن أدري أن الموت بمثل هذه الروعة، فقد خلصني من كل ألآمي".

من بعيد اقترب رجل حتى بان للجميع وجهه، قال لهم بفرح: "أنا بركات، أتعلمون إلى أين كنت ذاهباً قبل أن أجد نفسي فجأة بينكم؟ كنت في طريقي لحفل موسيقي. أنا عازفُ ناي، لا أرى نفسي ولا أشعر بكياني إلا والناي بين يدي. حين وصلتُ إلى هنا، لم يكن الناي معي، فتشت عنه لكن لم أجد له أثراً. شعرت حينها بأنني فقدت جزءاً من ذاتي. أتريدونني أن أعترف لكم بشيء، أو أفشي لكم سراً، بعد أن وصلتكم بأيام، راودتني نفسي بالبحث عن قصبة لأصنع منها ناياً، خفت في بادئ الأمر. أي عمل أحمق سأقدم عليه قلت في نفسي، أأنا هنا للموت أم للعزف على الناي!".

قاطعه صلاح بالقول: "أيُّ ناي سيكون قادراً على الوقوف في وجه الموت!".

أجاب بركات: "لم أستطع كبت تلك الرغبة في داخلي، تأججت رغماً عني، رحتُ أتسللُ لأبحث عن عود قصب يطفئ عطشي. بعد بحث مضن، عثرت في وادي المقابر على ما أريد، وجدت قصبة تحمل في جوفها حنيناً فاتناً، تناولتها بحذر وشذّبت طرفيها، وعلى مهل، صنعت بها ستة ثقوب. حين انتهيت ونفخت فيها بشوق، أيقنت أن الناي الذي يمنحُ هذا القدر من الحياة، قادرٌ على الوقوف في وجه الموت".

"وأين هذا الناي الآن؟"، سألت سيدةٌ طاعنةٌ في الموت. ردّ بلهفة: "مخبأ لدي"، وأشار لمكان بعيد.

كان مصطفى يتابع زواره باهتمام بالغ، يصغي لما يدور بينهم ويشاركهم شيئاً من هواجس باحوا بها، لكن بقدر ما أسعده هذا الشعور الذي غمره، وهو يفكك العزلة التي رافقته منذ يومه الأول في السجن، سكنه القلق على الموقف الذي ربما زجّ به الفضيل عن غير قصد.

لم يبرح هذا الأمر تفكيره، فهذه ثالث حادثة يشعر بأنه وكز الفضيل بها. لذا دون أن يشعر وجد نفسه ينسل من بينهم ويذهب لرؤية الفضيل والحديث معه.

سار بين القبور بقلق. قبل أن يصل قبر الفضيل، لمح من بعيد طفلاً يجلس على زاوية قبر صغير وقد غرق في تأمل شمعة تتراقص أمامه. أدرك على الفور أن ذاك هو حسّان، وأن الشمعة التي كان قد أوقدها له على قبره قبل قليل، قد جذبت اهتمامه.

ذاك هو حسّان إذن قال في نفسه، شيءٌ ما استفاق في داخله ودفعه للمضي قدما نحوه. خطى نحوه وهو يسترجع بعضاً مما قيل له عنه. حين وصله، وجد أمامه صبياً ضئيل الحجم، منـزوياً، ضامر الجسد، يسكن خلف وجهه الأبيض الشاحب، الكثير من الحزن.

كان ضوء الشمعة الهشّ يضفي على الصغير شيئاً من الوداعة. فمضى نحوه بحذر وهو يفكر في الكلمات التي سيقولها له، والخطوة الأولى التي

سيقدم عليها، فكرّ مجدداً، أيلقي عليه السلام؟ أيجلس قريباً منه؟ أيمد له يداً لمصافحته؟ أينتظر ردة فعله؟

حين شعر حسّان بقدومه، بان عليه الارتباك، ضمّ ساقيه إلى صدره ونفخ على الشمعة بسرعة، فأدخل المكان في بحر من الظلام.

تعجّب مصطفى مما فعل حسّان، فلم يقترب منه، ترك عدة خطوات تحسباً لأي شيء قد يصدر عنه.

راقه هذا الصمت الذي لاذ به حسّان، فجلس قريباً منه وراح يتأمل الصغير الذي شعر بشيء خفي يجذبه إليه. لم يدر في بادئ الأمر ماذا يفعل؟ بعد برهة من السكون الذي طوّق المكان، وجد نفسه يقول كمن يحدّث نفسه: "ذات يوم كان هنالك فارسٌ شجاعٌ يمرُّ بحصانه قرب قلعة كبيرة. وكان يعيشُ في القلعة ملكٌ مجنونٌ يعرف الجميع أنه يسجن كل من يقترب من قلعته، كان الناس يبتعدون عن القلعة حتى لا يقع عليهم جنون الملك وغضبه، وبينما كان الفارس يخب بحصانه بالقرب من سور القلعة الكبير، سمع صوت فتاة تغني بحزن. نظر الفارس حوله فلم ير أحداً، أوقف حصانه، وترجّل عنه ثم اقترب شيئاً فشيئاً من سور القلعة. وبينما هو مشغول في البحث عن مصدر الصوت، ألقى حراسُ القلعة القبض عليه. أخذوا حصانه وسيفه وملابسه الثمينة، وأعطوه ملابس قديمة ثم رموا به في سجن القلعة، بانتظار أن يعود الملك من رحلة الصيد

لبرى ماذا سيفعل به. ظل الفارس في سجنه أياماً طويلة، وكان يسمع كل ليلة صوتاً جميلاً يغني بحزن".

لم يصدر عن حسّان أي شيء، بقي على ذات الجلسة. لكن بدا أن الكلمات راحت تشق طريقها إليه بسهولة، تأملهُ مصطفى مجدداً، ثم أكمل حديثه وهو يمنح صوته شيئاً من العمق: "كل ليلة بعد غروب الشمس، يقترب الفارس المسجون من نافذة سجنه ويستمع لصوت الفتاة الحزينة، التي لم تتوقف عن الغناء منذ أن سمعها أول مرة. لم يدر الفارس ماذا يفعل، نادى على الحراس فلم يرد عليه أحد، حاول أن يدقّ باب السجن لكن دون فائدة. جلس حائراً يفكر، قال في نفسه، ماذا سيفعل بي هذا الملك المجنون، هل سيبقيني مسجوناً عنده إلى الأبد! هل سيقتلني، يعذبني أم يطلق سراحي؟ لام الفارس نفسه على ما فعل، ندم لأنه ترجل عن فرسه، ليبحث عن الفتاة معرضاً حياته للخطر. مرّت عشرة أيام والفارس مسجون في القلعة، لكن ذات صباح أحسّ الفارس بالحراس قادمين نحوه وبينما..."

على عكس ما بدا عليه الأمر، ولسبب لا يعلمه مصطفى، نهض حسّان بهدوء، نفض شيئاً من الغبار عن ساقيه، وخطى بعيداً، ثم غاب بغير اكتراث في جوف العتمة.

***

الفصـل الخامس

عقب شهور من ليلة الاعتقال

وحدهُ الليل ينامُ على جسد المدينة ويغشاها.

الوقتُ فجر. حلمٌ لا ينتهي، خيطٌ أبيض ينسلُّ من عباءة السواد، ويتلوّن أمامها على مهل. ليس ثمة أحد غيره بجانبها، مُنهكةٌ تتمدد لأجله على سرير أبيض، يكادُ الإرهاق يفتكُ بكل خلية من خلاياها. قبل قليل، رفعت رأسها لتنظر من نافذة غرفتها في الطابق الرابع، دفعت حافة النافذة بيدها، ليدخلَ للغرفة هواءٌ باردٌ ظلَّ ينتظر طويلاً.

لا أثر لأحد في الطرقات.

راحت تتأمل المشهد الصامت إلى أن بدأت الحياةُ تنهض بتثاقل، وتكرر المشاهد الصباحية ذاتها؛ حراسُ ليل يجوبون الطرقات بضجر، عمّالُ نظافة يحاولون بفتور تجميل وجه المدينة المتعب، باعةٌ يرشّون الماءَ على

مداخل محالهم، ويُمنوّن النفسَ برزق وفير، وثلاثة رجال مُسنّين يحثون الخطى نحو عتبات الفجر.

الصبحُ على وشك الاستيقاظ من نوم مرهق على ما يبدو، مُثقلٌ بالزرقة والدعوات، أضواءُ الشوارع تتداخل مع شقشقات الفجر الأولى، لترسم على برودة السماء خيوطاً زئبقية، لا تلبث أن تفتّتها أشعةُ الشمس، بينما تجرّ كوابيس الأمس مشاهدها المربكة، وتتهيأ كعادتها للرحيل.

كثيرة هي المرات التي راقَبتْ فيها النهار وهو يتسربُ من جفون الليل، يراوغُ قدر استطاعته لينفك من عتمة ظلت طوال الليل تحاصره، يبدو أن لهذا الفجر قصة جديدة معها، يبدو وكأنه تأريخٌ لشيء ما، فارقٌ بين زمنين موجعين، أو إتلافٌ مُدبرٌ لعزلة ناوشتها طويلاً.

مالت أماني برأسها نحو النافذة، حرّكت ستارتها، فدخلت مع نسمة هواء منعشة، بقايا من آذان الفجر، ملأت رئتيها بها وبهواء رطب لذيذ، ثم أسندت رأسها قليلاً للوراء، وجالت ببصرها في أنحاء الغرفة التي استعصى عليها تذكّر كيف دخلتها وتمددت على سريرها.

"غريبةٌ عليّ هذه الغرفة، كيف دبرتها الحياة لي وله!". قالت في نفسها بتوجس.

شرد نظرها بعيداً، راح يرافق رغبةً بالاستيقاظ تزحف نحو المدينة ببطء؛ هناك، مئذنةٌ نهضت بكامل استقامتها لتمتص بعضاً من قدسية الصباح، أما في زوايا الغرفة فباقات ورود غصّت بالأمنيات. في فضاء الغرفة رائحةٌ غريبة لم تعتدها من قبل، آثارُ صراخ يحاصر شتى الجهات، وألم ما يزال يحوم في السقف.

أما على امتداد الجسد فشيء مختلف أيضاً؛ عرقٌ مالح يلتصق بالظهر، وخدرٌ مؤلـمٌ يُنمّلُ ببطء.

تذكرتْ أشياءَ بسيطة حول ليلة البارحة. كانوا كثيرين، تملأ السعادة وجوههم، جاءوا بها على عجل، لم ينتظروا حتى تنتهي من كامل حزنها، أو تفتش في قلبها عن متسع لقادم جديد.. أدخلوها الغرفة بتوجس بينما وقفوا في الخارج، يرصدون كل صرخة تصدر عنها، ويحلبون آخر دقائقها كامرأة وحيدة.

كانت تستشعر وجودهم، تعلمُ أن القدر بينهم، يطل برأسه ويفتك به الفضول. يا لهذا القدر.. أغرق روحها بتفاصيل منهكة، جففَّ كل دمعة يمكن أن تهنأ بها، فرّق بخبث بينها وبين ذاك الذي رحل، لم يمهلها حتى لرصة منحه وداعاً يليق به.

انتظروا طويلاً، كانت تحسُّ بهم يقطعون الممرات، وهم لا ينشدون أكثر من صرخة. كانوا قلقين، لكنهم على يقين من أن انبثاقاً سيتم على مقربة منهم. وكلما اشتد صراخها أو خلخل الألم مفاصلها، علت همهماتهم ودعواتهم، ولاحت على وجوههم نشوة انتصار على ما تدبره الحياة بمكر.

هم يفكرون كيف يطوّعون جسدها ويسايروه، أما هي فتفكر في شيء مغاير. تفكر في السنوات التي قضتها برفقة ذاك الغائب، بالأحلام الصغيرة التي اتفقا على تحقيقها في غفلة من الزمن، تفكر في وجع تلك الليلة التي شهدت اعتقاله، في الصمت المريب الذي لفّ قصته وصبغ كل شيء حوله، تفكر بالجرح الذي لم يفتر ولم يلتئم مذ صفدوا يديه ومضوا به من أمامها.

أرهقتها عذرية الأسئلة التي تبحثُ لليوم عن إجابات. إلى أين أخذوه وكيف اختفى بهذه الطريقة الغامضة؟ لِـمَ لا يعرف أحد عنه شيئاً؟ أين هو الآن؟ ماذا يفعلون به؟ كيف السبيل للوصول إليه؟ أما يزال على قيد الحياة؟ ماذا يأكل؟ كيف ينام؟ هل ستراهُ ثانية؟ أيعلم ما جرى لها خلال الشهور الماضية التي تلت غيابه؟

لغزٌ كانت تلك الليلة بالنسبة لها، وأمكرُ الألغاز ما استعصى يوماً حلّه.

حين أدخلوها الغرفة، كان ثمة شخص آخر بانتظارها، ما إن تمددت لأجله على سرير أبيض، وسلّمت له جسدها حتى اختبرت إحساساً لم تعهده من قبل؛ تلاشت طراوة الجسد فجأة، كادت تسمعُ تثاؤب العظام وتمددها، نبضاتٌ متتاليةٌ من الألم راحت تغمر كل أطرافها.. كانت تغيبُ عن الوعي، تعبر بين الواقع وقسوته، والحلم ولذّته. يأخذها الرهان على بعد عوّلت عليه الكثير، وما انفك حتى اليوم يخذلها، تحاول أن تحلّق على فرح لا يتسع لأكثر من اثنين، بينما يتصببُ جسدها الشاحب، مزيداً من العرق والذبول.

كثيراً ما جاءتها ليلة مثل هذه على جناح الحلم، رأتها في منامات لحاطفة، خبرت تفاصيلها التي تداخلت بين رغبة تنشدها، ومخاوف لا للبث أن تقتحم عليها عالمها الهش.

كانت تصرخ بحرقة، تنادي عليه، تفتش عنه، تعضُّ على شفتيها، لفرس أظافرها في أطراف السرير من قسوة الألم وحرقته، تزيح عن وجهها خصلات شعر بللّها عرقٌ دافئ، وحين تعودُ وحيدة من عوالمها للك، تشعر بمذاق الانكسار وحرقته.

طال عراكها مع السرير.. لم تعد تستطيعُ التنفسَ بحرية، ثمة حربٌ بخوضها جسدها مع كل شيء حوله، حربٌ كما هي حياتها في غيابه.. مواجهةٌ يوميةٌ حتى مع أبسط الأشياء.

تصلّبت ساقاها، صارت تلهثُ كمن يلاحق قدراً يهرول أمامه، كلما اقتربت ذروة الخلاص، تراخى الجسد مجدداً ليعيد دورة الألم من جديد. لم يعد جسدها يعرف تفاصيله. اشتد عليها الوجع، راح جسدها يضطرب ويرفع إيقاع حركته، كادت تشهق في لحظة حتى يخيل إليها أنه سيسمع صرختها من زنزانته تلك.

في لحظة بعينها، سرى خدرٌ في أوصالها، أغرقها بللٌ ظل ينتشر، حتى تنفس الجسدُ خلاصهُ وارتاح. بعد أن هدأ ضجيج معركتها، بكت بحرقة على لؤم القدر وعناده، بكت غيابه الماثل أماها في كل الجهات.

أنهكها الألم، طفحت روحها به، انكفأت بعد ذلك على نفسها دون أن تشعر، ثم قالت كمن يخاطب طيفاً لم يفارق روحها لحظة: "ها هو يتمددُ بجانبي الآن، أنظر إليه إن كنت تستطيع الرؤية حيث أنت. أنظر.. أليس هذا ما أردناه؟ ها هو في سريري، أشم رائحته، أتفحص ملامحه التي لم يتسن لي رؤيتها من قبل. لكن هذا المكان مكانك، هذه المساحة والوسادة لك، فبأي حق، تستبدلُ الحياةُ الأماكنَ والأشخاصَ وفقَ ما تشاء! كنتُ أستيقظُ فيما مضى لأراقبكَ وأنتَ نائم، لأسمع ما لم تقل بعدُ من كلمات. اليوم أفرد له مساحتك الخاصة، أقاسمه إياها لينام بجانبي، علّه يخطف لي من الحياة شيئاً مجدياً غير الانتظار".

بعد أن دوّت صرخةٌ منها شقّت صمت المكان، وأعلنت بلوغ الذروة، تركوهما وحيدين وغادروا مطمئنين، لملموا قلقهم، وصلوات ركنوها خلف أبواب موصدة، ومضى كل إلى عالمه، أما هي فكان عليها الولوج نحو عالم جديد.

ما يزال الوقت فجراً.

حاولتْ التململ في السرير والتقلّب على جنبها الآخر، تحسست سالبها وظهرها الذي تفصّد عرقاً كثيراً، حاولت أن تستجمع ما تيسر لها من عزم، بيدَ أن ضجيج ليلة البارحة امتص من الجسد كل طاقته وحيويته. لاحت من بعيد أول خيوط الشمس، عكّرت ما تبقى من حُلكة الليل وغبشه، راحت توقظ كل ما يقف في طريقها، وترمي رذاذاً على رؤوس الأشجار.

الصمتُ يفرض سطوته على كل شيء، رغم أن الحياة راحت تدب في الدرف المجاورة.

حاولت أن ترفع جسدها قليلاً، ثمة خدرٌ يولدُ في راحة اليد، يمتد شيئاً فشيئاً للساعد، ينضج هناك فيفقدها الإحساس بأطرافها، لترتمي مجدداً على الجنب الذي أمضت عليه الليل بطوله. جفّ ريقها، امتدت يدها لتناول كأس الماء الموضوعة بجانبها، شربت حتى غسل الماء كل ما

بداخلها. تذكرت وهي ترشف الماء ما قال لها ذات ليلة وهو يناولها كأس ماء: "يخيّل إلي أن الماء يغسلُ كل شي، إلا الحزن، لا يغسلهُ سوى حزن أقسى منه".

كانت ليلة الأمس حدثاً فاصلاً في حياتها. قالوا وهم يهيئونها لها: "تماسكي. كل شيء بميقات، فالغد لا يأتي قبل موعده، تروّي فمثلك لا يليق بها غير ذلك". حاولتْ أن تؤخر ما حصل ليلة البارحة ما استطاعت، ناورتْ جسدها الذي كان الجميع يراقبونه ويتلهفون لما فيه، بقيت تمني النفس أن يأتي في أية لحظة ليكون هو في تلك الغرفة، لكن يبدو أن الخذلان لا يتلذذ بالحضور إلا حين نستبعده.

سرت في روحها هواجس عديدة، أسندت رأسها المتعب على وسادة تبقعت بالعرق، وراحت تنظر نحو الحياة من نافذة الغرفة.

الآن استفاق النهار وتمطى.. تجاوزت الساعة السادسة صباحاً، بدأ ضوء النهار يبتلع الأماكن ويدخلها في حضرته، لم يعد للعتمة وجود سوى لمن ينشدها. سَمعت جلبةً في الممرات، أحسّت بحركة تملأ الأرجاء وتعيد الحياة للمكان. أحسّت أيضاً بحركة في سريرها.

هي تعلم أنها قد صارت في هذا الصباح امرأة أخرى، لكنها لم تكن تتخيل قطّ، أن صباحاً واحداً يمكن أن يغير للأنثى عالمها. تمنت في هذه

اللحظة بالذات أن يكون ذاك الذي صفّدوا يديه، وانقطعت أخباره منذ تلك اللحظة، بقربها.

تمنت لو تتخلى الأحلام قليلاً عن ورديتها، وتكف الكوابيس التحرش بها.

حاولت قدر استطاعتها استحضاره، ودّت لو أن بإمكانها فعل شيء أكثر واقعية من مجرد التخيل، لكن لفرط حاجتها إليه، أحسّت به يجلس قرب سريرها، كادت تراه وهي تفرك عينين غائرتين حاصرتهما هالات سود، عدّلت جلستها، وباحت له بشيء من الحزن: "أتدري من ينام بقربي الآن؟ هذا الذي أُقبلّه أمامك بحذر، مَن أمضيت أيامي الأخيرة أتهيأ للقاءه وأرتب له ملابسه وحاجاته كما كنت أفعل معك! ها أنا أفسح له مكاناً في القلب، أضعُ رأسه على صدري وأطوّقه بذراعي. أتحسس جسده وأقترب منه بشفتي لأستنشق لذة رائحته، ها أنا أبدأ معه حلماً جديداً لا أدري إلى أين يمكن أن يفضي بكلينا، أتدري مَن هذا الذي استيقظت بسببه غريزةٌ لم أختبرها إلا حين ألقمته صدري؟ إنه طفلك الذي كانت ولادته بالأمس... هنالك أطفالٌ يولدونَ وفي أيديهم ملاعق من ذهب.. طفلك جاءَ وفي يده وجعُ غيابك".

فرّت من عينيها دمعةٌ ساخنة ساحت بخجل على وجهها المجهد، مسحت الدمعة بانكسار، وبظاهر كفها أزاحت حبات عرق نزّت من الجبين.

أحست لحظتئذ باضطراب روحه التي هامت فوق رأسها. أضافت وهي تشعر به ينصت لكل كلمة تقول: "كنت أظن نفسي مستعدة للفرح، للمضي قدماً في حلم رأيته يكبر في بطني على مهل، اليوم أجد الحلم مشروخاً، باهتاً لا يُشفي الغليل. يبدو أن استعدادي للفرح لم يكن كافياً، لم أكن مهيأة له، فالفرح لا يمكث طويلاً، نزقٌ يا مصطفى، ليس له قدرة على الانتظار. أنت أيضاً لم تمكث بقربي طويلاً! سرقتك الحياة من أمامي، خطفتك بلحظة كنت أظنها قصيرة وستنتهي، توهمتُ أن الحياة ستعود لرشدها وتعيدك لي من جديد، لكن ليست الحياة من تتراجع عن أخطائها على ما يبدو، أو من تحتاج تبريراً لكل ما تفعله بنا. لا أعرف من أين أبدأ، هل أسألك ملايين الأسئلة التي تتصارع في رأسي، أم أخبرك نتفاً صغيرةً عمن تركتهم خلفك ومضيت؟ أأحكي لك عن هذا الصغير الذي كان يكبر في رحمي على وقع رحيلك؟ هذا الذي لم يعرف أباه إلا من قصصي وهمسي وبوحي له ساعات طوال، أتصدق لو قلت لك بأنني بنيت له أباً من الكلمات. لم يكن بمقدوري فعل شيء غير ذلك. الآن قل لي ماذا أفعل! أأحثّك على سرد يبدأ من تلك اللحظة التي شهدت رحيلك، أم أترك لك حرية الحديث. لن أبدأ من عندي، سأُمارسُ أنانيّة العشّاق ولو مرة واحدة معك، سأطلب أشياءَ لنفسي، أريدُ أن أسمع منك، تكلّم أرجوك، أتعبني الصمت كثيراً.. قُل شيئاً عن حاضرك.. فالماضي أعرفهُ جيداً".

* * *

الفصل السادس

بعد أن تركهُ حسّان ومضى من أمامه بغير اكتراث، أحس بشيء من الانطفاء، وسرت في روحة رعشةٌ من الحزن.

عدَلَ عن رأيه في الذهاب لرؤية الفضيل، آثر العودة لقبره والتمدد فيه. خطى نحو القبر بتثاقل، شرد عقله في التفكير بالفضيل وحكايته المحزنة مع نجله حسّان، أحسّ بالإشفاق عليهما، كيف لرجل أن يحتمل وضعاً كهذا! قال في نفسه وهو يطالع حلكة تتمدد في داخله.

حين وصل القبر، أطفأ بقايا شموع ذائبة، ظلت تعاند ريحاً مترية تنشط حولها. شعر بضيق شديد، بدا له أن تلك الحالة التي كثيراً ما انقضت عليه في ساعات وحدته في الزنزانة، قد لاحت في الأفق. لم يمهل نفسه طويلاً، أدرك أن عليه سلخ ذاك الشعور المرير الذي يُقدّم لحضوره عادة بتلك الهواجس المتعبة.

فكّر في القيام بأشياء كثيرة، ثم قرر فجأة الذهاب لأم طه. بات يشعر أن تلك المرأة التي آنست وحدته في أيامه الأولى، بمقدورها دوماً أن ترحب برجل مثله، مثقل بالألم والحريق. وصل قبرها والضيق باد على وجهه. فكانت ابتسامتها الدافئة خير مَن استقبله.

جلس على طرف القبر وقد بدا عليه الإنهاك، لكن شيئاً في وجه هذه المرأة بدّد كل تعبه. قالت له مداعبة: "ألا يحضرُ الضيف بالعادة هديةً ما حين يزور أحداً لأول مرة؟ حتى الموتى يفعلون شيئاً كهذا". ابتسم من قولها وأجاب: "وماذا يمكن أن آتي لسيدة لديها طيبة الأرض كلها، هل تقبلين شمعةً مثلاً!". سرّها قوله، فاقتربت منه وقالت بصدق: "شمعتي الحقيقية رأيتك تضعها على قبر حسّان. أتصدق لو قلت لك بأنني حين رأيتك تجلس معه وتحادثه، شعرت بفرح لا يعادله شيء، كأني غنمت الدنيا وما فيها".

لم يرد أن يفسد عليها سعادتها، تمنى في قرارة نفسه لو يقول لها بأن حسّاناً لم يعره أي اهتمام، انصرف من أمامه دون أن يلتفت إليه، تجاهله وتركه في منتصف الحكاية سادّاً في وجهه كل الطرق، لكنه صمت احتراماً لتلك البهجة التي شعّت من وجهها. أخبرته بأنها كانت تراقبه وهو يتحدث لحسّان، قالت له صدقني إنها المرة الأولى التي يجلس فيها حسّان مصغياً لأحد كل تلك المدة. هذا أمرٌ لم آلفهُ من قبل.

بينما تحكي له عن حسّان وحكايته التي لم تعد تفارقها، وجد نفسه يسألها: "هل لي أن أعرف سرّ اهتمامك به، وبالفضيل أيضاً؟ لا يبدو لي أن شيئاً يجمعكم". صمتت أم طه فجأة، تغيّر لون وجهها، لم تعرف كيف ترد عليه. أحسّ هو بالحرج من سؤاله المباغت، لام نفسه على تسرعه، حاول الاعتذار لكنها هزّت رأسها لتخفف عنه الحرج.

لعلها أول مرة تُسألُ فيها أم طه سؤالاً كهذا، أو يُطلب منها تفسير للاهتمام الذي تبديه دوماً للفضيل، وحسّان على وجه الخصوص. لكن ماذا تقول لهذا الرجل الذي هيّج بسؤاله ماضيها هي الأخرى. في المقابر، وحده الماضي، يجولُ بحرية كيفما شاء.

قالت له إن أردت الصدق، لم أر حسّاناً ولم أعرفه من قبل، تعرفتُ عليه في هذه المقابر حين عاد به الفضيل ذاك اليوم. لكنني أعرفُ الفضيل جيداً. أعرفه منذ أن كان في عالم آخر، وحتى قبل أن يسبقني لهذا العالم بسنوات، لكني عرفته أكثر حين وصلت إلى هنا وكان كالكثيرين ممن تراهم هنا، في انتظار قدومي.

تأملت أم طه يديها، ثم سرحت في ماضيها قليلاً، عندها أدرك مصطفى أنه أمام سيدة تتخفف شيئاً فشيئاً من ثقل حكايتها.

لعلها ثاني مرة تحكي فيها بعضاً مما حصل معها. أول مرة باحت بهذا الأمر كانت لزوجة الفضيل، يوم زارتها بعد رحيل الفضيل بفترة لا بأس بها. فعقب تعرض الفضيل لذبحة صدرية بساعات قليلة، انتشر خبر رحيله بين الجميع، وحين وصل الخبر لأم طه بكت موته بحرقة.

أحسّت كغيرها ممن عرفوا الفضيل بوجع حقيقي، وقررت أن تزور بيته لتقدم لزوجته واجب العزاء. ترددت في بادئ الأمر، خشيت أن توضع زيارتها تلك في غير موضعها، لكنها تجاوزت ترددها إكراماً لروح الفضيل.

بعد أسابيع من رحيله عزمت أمرها على القيام بتلك الزيارة. كانت تتشح بالسواد، تضع على رأسها منديلاً لفحته حرارة الشمس، فلم يعد يُعرف له لون، وجهها مليء بالحكايا والأسرار، بينما تجاهد لكي تضبط دمعة تنتظر أي فرصة للفرار. دقّت جرس الباب ووقفت تنتظر، بدا لأرملة الفضيل وهي تفتح الباب أن هذه المرأة التي يبدو أن الحزن لم يفارق وجهها، تضمرُ وراءها الكثير من الكلمات.

حين همّت أرملة الفضيل بسؤالها من تكون وماذا تريد، بادرتها أم طه بالقول: "آسفة سيدتي، جئتك دون موعد، لكن لدي كلمات من واجبي أن أقولها لك. رحيل الفضيل أوجع الجميع. أنت أرملته أليس كذلك؟". لم تدر الأخيرة بماذا تجيب. قالت وهي تتنهد بحسرة: "نعم، هل من شيء

تريدينه؟". نظرت أم طه في عينيها ملياً، ثم أشارت لفتاة تقف على يسارها، وقالت على استحياء: "هنالك شيءٌ عليك معرفته سيدتي.. هذه الفتاة تخصُّ الفضيل". ودفعت بالفتاة نحوها.

خفق قلبُ أرملة الفضيل، حدثتها نفسها بأن ثمة شيئاً ما وراء هذه المرأة. تملكتها الدهشة للحظات، بعد أن ألقت المفاجأةُ ثقلها في نفسها.

لم تكن أرملة الفضيل مهيأةً لزائرة طرقت بابها وقالت يومها ما قالت. فقدت تركيزها للحظات، لكن سرعان ما استعادت توازنها، وطلبت من المرأة والفتاة التي كان مظهرها يثير الشفقة، أن تدخلا. كانت الفتاة ترتدي ملابس قديمة، كبيرة الحجم على واحدة بسنها، ربما حاولت الأم قدر استطاعتها، أن تضبطها على جسدها الضامر، لتجعلها ملائمة لزيارة كهذه.

مذاق الكلمات في صوت أم طه أثار شهية أرملة الفضيل للإنصات. لكن حتى تلك الأثناء، لم تكن قد تمكنت من استيعاب معنى عبارتها الأخيرة: "هذه الفتاة تخصُّ الفضيل"، لذا حين وصلوا صالة الجلوس، قالت لها أرملة الفضيل مجدداً: "هلاّ أعدت علي ما قلت توّاً". ردت أم طه: "نعم سيدتي، هذه الفتاة تخصُّ الفضيل، إن أردت الدقة أكثر، هذه الفتاة ابنته".

تحول فضول أرملة الفضيل بشأن تلك المرأة، والفتاة التي تجلس بخجل على يسارها، إلى قلق راح يطفح من وجهها. ثارت في رأسها تساؤلات لا حصر لها، من أين أتت هذه المرأة لتضيف لهمومها هماً هي في غنى عنه؟ هل تكذب عليها؟ لعلها تريد ابتزازها باختلاقها تلك القصة التي شرعت في سردها؟ أتراها مدفوعة من أحد؟ أتكون عابرة سبيل نسجت هذه الحكايا لتجني من ورائها شيئا ما؟

غابت أرملة الفضيل في هواجسها، فعاجلتها أم طه بالقول: "لا يذهب ذهنك بعيداً سيدتي، هذه الصغيرة التي ترينها أمامك، كان يمكن للحياة أن تلقي بها على قارعة الطريق، لتنهشها الكلاب وتبتلعها الأزقة كما فعلت مع كثيرين غيرها، لولا أن يسّر الله لها رجلاً اسمه الفضيل".

علت الدهشة وجه أرملة الفضيل، بينما فرّت دمعة خجلى من عيني أم طه التي أضافت وهي تضم الفتاة لصدرها، وتمسح حزنها بكفيها: "أعلم أن بك من الحزن ما يكفي، لكن من واجبي أن أقول لك الليلة شيئاً مما عندي، شيئاً أقرب إلى الدَين، الذي لا أملك سوى الكلمات لتسديده، نحن يا سيدتي نعيش حياة بسيطة أكثر مما تتخيلين، لم أكن أتوقع أن تغدر بنا الحياة يوماً، خصوصاً أننا لم نعن لها الشيء الكثير".

راحت أم طه تتحدث بحرقة، وكأنها ظلت طوال تلك السنوات تبحث عن امرأة تصغي لها، لتذيب على يديها كل هذا الوجع. جاءت من

أرملة الفضيل التفاتة نحو الفتاة فوجدتها ملتصقة بأمها، لم تشعر حينئذ بنفسها، إلا ويدها تمتد لتجذب الفتاة وتجلسها بقربها.

تابعت أم طه حديثها قائلة: "خطف الموت زوجي أنا الأخرى منذ سنوات، رحل تاركاً وراءه أسرةً لأعيلها. بعد وفاته بأيام لم يكن إمامي متسع من الوقت للحزن، ربما لا يليق الحزن بامرأة بسيطة مثلي، ثمة من ينتظرون مني ما يعينهم على مواصلة الحياة. لم يكن لنا أحدٌ نلجأ إليه. لا تستغربي هذا سيدتي، أناس كثيرون يعيشون حياة مثلنا، وليس عندهم أحدٌ يلجأون إليه. لذا كان علي أن أخلع حزني بأسرع مما تصورت. خرجت إلى الشارع، وبحثت طويلاً عن عمل، حتى يسّر الله لي عملاً في مؤسسة لخدمات التنظيف، عملت في أماكن عديدة، وشاء القدر أن أُلحق بعد شهور، كعاملة نظافة في مجموعة شركات المرحوم. ذات نهار، وبينما أفكر في قهر الحياة وقسوتها، في ابنتي التي تركتها محمومةً في البيت، دون أن يكون معها سوى شقيقين يقومان بدور الأم، رحت وقتئذ أفكر في طريقة لأخذها للطبيب، خصوصاً أنني لا أملك المال للقيام بهذا. صار التفكير يكوي جسدي ويعتصرني بمرارة. أيُ قسوة جعلتني أتركها على سريرها باكية وذابلة! تنظر لي بعينين متوسلتين، وترجوني أن أبقى بقربها، أي مرارة تجرعتها ذاك النهار، وأنا أدير لها ظهري، وأخرج من بيتي لأمسح فضلات الآخرين وقذاراتهم! تركت ثلاثتهم يومها يبكون ويتوسلون لي لأبقى معهم. لكني لم أصغ لهم، كان علي الذهاب للعمل، وسط هذا كله لم أشعر بنفسي، إلا وأنا أجلس باكيةً على أرض غرفة

صغيرة، كنا نحشر فيها المكانس والعربات وأدوات التنظيف. يومها أطلتُ البكاء دون أن أشعر بأي شيء أو بأي أحد حولي، لا أدري كم استغرقني ذلك من وقت. ربما علا نحيبي، ربما شهقتُ دون أن أحسّ بنفسي، لكن فجأةً رفعت رأسي، فوجدت أمامي رجلاً يقف على باب الغرفة. مسحتُ دموعي بظاهر كفّي، وعدّلتُ المنديل على رأسي، وحاولت مجهدةً الوقوف على قدمي للاعتذار له، ولأُلبي طلبه في تنظيف مكتبه، أو ربما لأمسح أرضية الممرات أو الحمّامات كما سيطلب مني بلا شك".

كانت تتحدث بمرارة، وكأن عليها دَيناً تريد أن ترده بسرعة.

هزّت تلك الكلمات أرملة الفضيل.. بلعت ريقها بصعوبة ثم نهضت لتحضر لأم طه شيئاً تشربه، لكن ما إن وضعت كأس الماء أمامها، حتى اندفعت مجدداً بالقول:

"لم أكن أعرف من هذا الذي يقف على باب غرفة التنظيف، جفلت من هيبته، لكن حين رآني على حالتي تلك، قال كلاماً لا يجيد قوله سوى رجل حقيقي، اعتذر أول شيء عن اقتحامه الغرفة دون استئذان، ثم طلب مني اللحاق به لمكتبه. كدت أشهق حين سرت بجانبه، وأيقنت من ردة فعل الجميع، ومن توقيرهم له أنه الفضيل الذي كثيراً ما سمعت عنه، وكانت تلك أول مرة أراه فيها. كان الجميع ينظر لي باندهاش وأنا أسير

بجانبه. ظنوا أنني أقدمت على فعل مشين، وإلاّ كيف لعاملة نظافة بائسة أن تسير بجانب الفضيل دون أن يكون وراءها أمرٌ ما!".

"طلب مني الجلوس يومها فخفت من هيبته، ومن فخامة المكتب الذي كنت أدخله لأول مرة، لكنه سحب لي كرسياً وأجلسني عليه، قال إنه سمع بكاء امرأة في غرفة التنظيف، فدخل دون أن يشعر بنفسه، ثم طلب مني الحديث بحرية، رحت دون أن أشعر، أقصُّ عليه حكايتي.. لن أطيل عليك أكثر، أصرَّ أن يوصلني للبيت بسيارته، طلب من سكرتيرته أن تحصل لي على إجازة للمكوث مع أولادي. وبعدما دخل بيتي، أصرَّ على أخذ ابنتي للطبيب.. قال لي يومها أبعدي عنك أي قلق يخص هذه العائلة. لم يتركنا نسأل شيئاً، حاول قدر استطاعته تعويض أبنائي عن فقد الأب وقسوة الحياة. لكن ماذا أقول لك سيدتي! حين خطفه الموت في تلك الحادثة المشؤومة، أدركت أن القدر ضَربَ في غير محله.. أدركت أيضاً أن عائلتي تعرضت لليُتم مرةً ثانية. ما أقساه من أحساس".

ترقرقت الدموع في عيني أرملة الفضيل، لكن قبل أن توغل مجدداً في جرحها الذي لم يلتئم بعد، سارعت أم طه بالقول: "لم آت إلى هنا لأهيّج مشاعرك، أو أفتح جرحاً، كما لم آت لأسالك حاجة، أقسمُ لك بهذا، أنا لا أحتاج شيئاً البتة. كل ما أردته هو أن أطلعك على ما جرى لا أكثر. أردتُ أن أقول له شكراً على كل شيء. صحيحٌ أنني أقسمت له بأن يظل هذا الأمر طيّ الكتمان، صحيحٌ أنني حاولت أن أتجنب مراراً السؤال عنك

والحضور إلى هنا بعد أن رحل، محاولةً قدر استطاعتي الحفاظ على ما كان قد طلبه مني، لكن يبدو أننا أحياناً أضعفُ من أن نكتم أمراً يحرقنا من الداخل. لذا وجدت لزاماً علي أن أفي هذا الرجل حقه.. أرجو أن تسمحي لي بالمغادرة الآن، علي العودة للبيت".

كان مصطفى يصغي باهتمام لهذه الحكاية التي أرخت أم طه بعضاً من تفاصيلها أمامه، قالت له أنت ثاني شخص أبوحُ له بما جرى، صدقني لا أعرف كيف وجدت نفسي أعيدُ عليك حكاية عمرها سنوات، ربما لأني شعرت أن بإمكانك أن تقف في صفي، أن تساعدني في تسديد دَين لم يطالبني به الفضيل يوماً، أعلمُ أنه لا ذنب لك في كل ما جرى، ربما حمّلتك فوق طاقتك، أدخلتك في أمر لا شأن لك به. لكن ليتك تعلم أنني على استعداد لأتعلق بحبال الهواء، إن كان هذا يعيدُ حسّان إلى حضن أبيه.

بقدر ما كسا الحزنُ وجه أم طه، بان الاجهاد على محيا مصطفى، أحسّ بصدق كلماتها وحرارتها، فودعها وربتّ على كتفها، ومضى من أمامها وهو يقول في نفسه: "على قدر الوجع، تكون دوماً القصص الموجعة. غريب أمر تلك الحياة، يبدو أنها لا تجيد شيئاً كقهر البسطاء وإيلامهم.. لماذا يأبى الحزن أن يفارق بعض الوجوه، مهما بذلتْ جهداً لطرده!".

***

الفصل السابع

قرب قبر الفضيل، كان ثمة جدل قد بدأت تعلو وتيرته. جاء ياسين ومعه شهاب الدين لرؤية الفضيل الذي كان يتوقع زيارة كتلك في أي لحظة. وقف كلاهما عند درجات القبر وناديا عليه. نهض الفضيل وتوجه نحوهما وهو يعي في قرارة نفسه الغرض من تلك الزيارة.

سلّما عليه ببرود، ثم قال ياسين وقد علا الضيق وجهه: "متى سيدركُ هذا الغريب أنه لا يستطيع أن يجلب معه الحياةَ للمقابر، أيريدُ أن يبني لنا عالماً موازياً! لم يطلب منه أحدٌ أن يفعل ذلك، فليدع الناس وشأنهم، إن كان يريد أن يناطحَ الموت، فليناطحه بعيداً عن هنا".

لم يتركه شهاب الدين يكمل حديثه فقاطعه قائلاً: "أيظن أنه بأفعاله تلك سيهزم الموت! أيريد أن ينتصر عليه؟ ألا يعلم أن الموت لا يدخل في صفقة مالم يكن فيها رابحاً!".

لم يبد الفضيل الكثير من الاهتمام لما قالا، فعاود ياسين حديثه: "لقد حذرته أكثر من مرة وأنت تعلم هذا. إن لم يعد لرشده، لا عذر لنا حينها إن قمنا معه بعمل لم تألفه المقابر من قبل، هذا ليس من أجلنا، نحنُ لا نفعل شيئاً لأنفسنا وأنت تعلم ذلك جيداً، هذا من أجل شيء أكبر".

بدا واضحاً أن التوتر قد علا وجه الفضيل، لكنه ظل صامتاً بينما عاد شهاب الدين مجدداً ليقول بشيء من التهديد: "لن نتوانى عن القيام بأي شيء إن لم يتركنا بحالنا، هذا أمر عليك إيصاله له".

كان مصطفى في تلك الأثناء قد ترك قبر أم طه وراء ظهره، وخطى وحيداً يفكر في كل ما قالت، حين عبر بشيء من الشرود قرب قبر الفضيل، تناهى إلى سمعه حديثهم فأدرك أنه المعني به. انعطف نحوهم، وهو يشتّمُ أنصاف حرائق بدأ دخانها يتصاعد. حين وصلهم، تفرّس في وجوههم جميعاً ثم ألقى عليهم السلام. ردّ الفضيل التحية، بينما تمتم ياسين وقطّب جبينه، وأشاح شهاب الدين بوجهه.

نظر في وجه الفضيل الذي هزّ رأسه مراراً كمن يرجوه ألا يكترث لما سيقولان.

أدرك مصطفى حينئذ أن الفضيل راغب في تفادي أي احتكاك قد يفتعله ياسين وشهاب الدين، فكّر ملياً في تجاوز هذا الأمر، والعبور فوقه

احتراماً لرغبة الفضيل على أقل تقدير، لكن حركةً تنمُّ عن ازدراء حقيقي قام بها ياسين بظاهر يده، أصابت مصطفى بالجنون.

قال موجهاً كلامه لياسين وبحدة لم يعدها في نفسه: "أعرفُ تمام المعرفة من ينصّبون أنفسهم وكلاء لكل شيء، بيني وبينهم قصصٌ لا تنتهي، لكن هذه أول مرة أعلم فيها أن للموت وكلاء هو الآخر! ماذا تريدون بالضبط؟ ما الذي أقدمت عليه لأشعل عندكم كل هذا الغضب؟ لا أعرف لماذا تقفز إلى خاطري الآن مقولة بليغة طالما رددها على مسامعي رجلٌ تقيّ عزّ علي فراقه، كان يقول لي على الدوام: نصفُ طبيب يُفقدك صحتك، ونصفُ إمام يُفقدك إيمانك".

ثارت حفيظة ياسين، فردّ بغلظة: "أقصر يا هذا".

تجاهل مصطفى تحذيره، وقال بصوت أكثر هدوءاً: "أنا لا أتحرشُ بأحد، لا أفتشُ عن معركة أو نزال وأدسّ أنفي فيه، ولا أسعى لخلخلة أي شيء. أنا يا سادة عشت ما يكفي من الهزائم، وتجرعتُ ألماً يفيض عن حاجتي. لكني أعرف ماذا أريد، وأين أقف وإلى أين سيمضي بي كل هذا، لذا لا أعترض طريق أحد، لا أقلل من شأنكم ولا أنوي مزاحمتكم على شيء، فقط اتركوني وشأني، يكفي أنني مع الموت بت أكثر طمأنينة، وأكثر قرباً إلى ذاتي".

لم يتركه شهاب الدين يكمل فقال بغلظة: "ومع ذلك تأتي لنا بما لم نألف! لن نسمح لك بهذا".

لم ينجر مصطفى لما سمع، ردّ وقد نظر ناحية الفضيل هذه المرة: "أنا أقوم بما لم يتح لي القيام به خلال سنوات طوال قضيتها وحيداً، أنا لا أسلبكم ما تملكون، افعلوا ما تشاؤون، فأنا فقط أبحث عن فسحة أتنفس فيها بحرية، على كل حال إن كان عندكما شيءٌ تجاهي فقولاه في وجهي، وإن أقدمتما على أمر ما، فليكن معي أنا، لا ذنب لهذا الرجل فيما جرى. أريد أن أقول لكما شيئاً أخيراً أرجو أن تعياه جيداً، يبدو أنكما تركتما الحياة ورائكما ووقفتما خائفين على أرصفة الموت، أما أنا فتركتُ الموت ورائي وجئت أفتش الآن عن أثر للحياة".

صاح ياسين بشيء من الصلف: "وما قيمة الموت إن لم يكن.. موتا؟". رد عليه مصطفى وقد تلاقت العيون، وبرقت بشيء أقرب لوميض الجمر: "من أين لك أن تدرك أن الموت مسألة أعمق من هذا بكثير! قد يقابلك في اليوم الواحد سبع مرات، قبل أن تجد نفسك في لحظة ما، تائهاً بين شواهد القبور".

لم يرق لياسين وشهاب الدين ما جرى، رمياه بنظرة تنمّ عن ضيق حقيقي، وغادرا بعد خلّفت أقدامهما زوبعة من الغبار، ابتلعت ما تبقى من حديث.

جلس الفضيل على عتبة قبره وقد أحسّ بضيق في الصدر. تنهد مراراً كمن يحاول أن يزيح حملاً ثقيلاً جثم عليه فجأة. مسح صدره براحة يده وراح دون أن يشعر، يسترجع الحديث الذي دار أمامه توّاً، صحيحٌ أنه توقع قدوم ياسين وشهاب الدين في أية لحظة، لكن مالم يكن يتوقعه هي تلك الطريقة التي ردّ بها مصطفى عليهما.

بينما هو غائب في صمته وتفكيره فيما جرى، قال له مصطفى بصوت به الكثير من الاحترام: "اعتذر عن اقتحامي حديثكم بهذا الشكل، اعتذر أيضاً إن سببت لك أي إرباك، يبدو أنني مذ وصلت لم أجلب معي سوى القلق ولم أمنحك شيئاً غيره. صدقني حين رأيتهما عندك أدركت أنني المعني بهذه الزيارة، لذا فعلت ما علي فعله لأضع حداً للمضايقات التي أعلم أنك تتعرض لها بسببي. أنا لا أبحث عن أي صدام، علمتني سنواتي الأخيرة كيف أواجه غضب الآخرين واستفزازهم، كنت أفعل هذا باستمتاع حينما كانت المسألة تخصني وحدي، لكن حين يتعلق الأمر بشخص آخر قد يحُمّل وزر تصرفاتي، فعلي حينها أن أقف بصلابة".

ابتسم الفضيل في وجهه، بدا وكأن في فمه كلاماً يريد قوله، حاول كتمه بعض الشيء، ثم وجد نفسه يسأل: "هل لي أن أعرف قصدك بالضبط حين قلت بأنك تركت الموت وراءك، وجئت تفتش الآن عن حياة".

لم يدر كيف يجيب الفضيل عن سؤاله الذي شرّع أمامه أبوابًا لا حصر لها، كان فيما مضى يقتفي أثره ليبوح له بشيء من وجعه، لكن حين سأله الآن عن ماضيه، خانته الكلمات، واحتار كيف يأخذ بيده لجهة حكاية بقدر ما بها من بساطة، تجرّ وراءها الكثير من الخيبة والمرارة.

حين أحسّ الفضيل بارتباكه، اعتذر له عن أي ضيق سبّبه السؤال، ثم خيّره بين الجلوس عند عتبة القبر أو المضي بعيداً عن المقابر. شيءٌ ما دفعه ليختار الحديث بعيداً، فتحرك الاثنان وسارا باتجاه وادي المقابر.

من أين يبدأ التحرشَ بقصته؟ هل استطاع الموت أن يُحرر الأشياء من صمتها وقسوتها؟ كيف يجابه هذا السؤال الآتي من بقايا الوجع، النابت فوق صمت تجمّع على مهل! وكيف يمضي به إلى حافة الاعتراف.

أيُ مفارقة هذه التي وجد نفسه منقاداً إليها! هل مكث كل سنوات السجن حارساً لصمته، لتدفعه المقابر الآن للحديث عن طيب خاطر! فكّر ملياً، خلخل عقله الأحداث ثم راح يتعقب التفاصيل عن كثب، منذ تلك الليلة التي ألقوا فيها القبض عليه، مروراً بالسنوات الخانقة التي أعقبت ذلك. سنوات لم تحفل بشيء غير القسوة والتكرار! لكن أيحكي له ما جرى، أم يختصر قدر الإمكان معفياً نفسه من تذكر المرارة ومعايشتها مجدداً؟

دارت في رأسه تلك الهواجس، وراح صداع موجع يتشكل ببطء، بينما الفضيل مصغياً بانتظار أن يفتح له هذا الغامض الغريب، كوّة في جدار الصمت.

بعد أن لاح لهما وادي المقابر من بعيد، عوى ذئب فاشتعل في داخل مصطفى فتيل الحكاية، التفت نحو الفضيل وقال له: "أمضيتُ سنواتي العشر الأخيرة معتقلاً في زنزانة انفرادية، لا أفعل شيئاً سوى مضغ الألم والتسلي به. ألقى ضباط المخابرات القبض علي بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم، تلك التهمة كما تعلم كفيلة بالذهاب بك وراء الشمس. لا أنكر علاقتي بالأمر، ولا أنكر أيضاً رغبتي في كنس ذاك النظام العفن الذي شاخ وأصبح وجوده عبئاً على الجميع. لو عاد بي الزمن إلى الوراء لكررت ما قمت به وما ترددت لحظة. لاشيء يغيظني كالوهم الذي يباع للناس، والقداسة التي أحاطوا بها قائداً طائشاً، يرى نفسه تحت الإله وفوق البشر. ذات مرة وفي ندوة كان ضباط المخابرات على ما يبدو يرصدونها بدقة، قلت عبارة سمعتها في خطبة لمارتن لوثر كينج: المشكلة ليست في ظلم الأشرار.. بل في صمت الأخيار. حينها قامت الدنيا ولم تقعد. وقتئذ، وإزاء كل ذاك الكبت والقمع والفساد الذي استشرى في جميع مفاصل حياتنا، قررت أن أرمي الصمت وراء ظهري. لم يكن باستطاعتي أنا وشريحة واسعة من الحالمين بالعدالة والمساواة، أن نسكت على جنون هذا الديكتاتور العابث الذي ابتلع الدولة، وأسرج مصيرها نحو الهاوية، أي

عاقل تَهَمهُ مصلحة وطنه، كان سيقف في نهاية المطاف في وجهه، ويقول له ولزمرة المنتفعين معه، كفاكم عبثاً".

دُهش الفضيل مما سمع، فسأله على الفور: "أكنت جزءاً من تلك المحاولة الانقلابية التي قيل حولها الكثير! لا شك إذن أنك تعرف الدكتور سلمان، اختفى هو الآخر مع الذين اختفوا في تلك المداهمات، حاولت شخصياً عمل المستحيل لأعرف ما جرى له لكن دون فائدة". أشرق وجه مصطفى حين سمع باسم الدكتور سلمان؛ العلاّمة الجليل الذي كان أول من جهر بمعارضته وسُحل في الشوارع على إثر ذلك. هذا الحديث هيّج ماضياً ظن مصطفى في كثير من ليالي السجن، أن الصمت أحكم قبضته عليه.

أخذ نفساً وراح يتحدث بحرية، أخبر الفضيل أن دوره في تلك المؤامرة الخسيسة، كما كان ينعتها المحققون، وهم يكيلون له الشتائم والركلات في أقبية التحقيق، كان مغايراً لما اعتقدوا، لكن لم يصغ له أحد، كانوا يبحثون عن اعترافات تروقهم، وتشبع نهمهم للألم، كانوا متعطشين لأسماء بعينها يضيفونها لقوائم الموت التي كانت تطول يوماً بعد يوم.

حين ألقوا القبض عليه كانت حالة من السعار الأمني تجتاح الدولة برمتها. الاعتقالات لا تستثني أحداً والتشكيك طال الجميع، لم يتركوا أحداً وشأنه، استباح رجال الأمن كل شيء؛ داسوا بأرجلهم حرمة البيوت

والأجساد، وهلك تحت وقع هرواتهم الكثير من الأبرياء، وبقدر ما كان تعنت الديكتاتور وقداسته يزدادان بريقاً ويمضيان به فوق السحاب، كانت الدولة برمتها تتفكك تحت أقدامه، وتذوب في مستنقعات الفساد والقذارة.

"لابد أنهم أنهكوك تعذيباً!". قال له الفضيل بتعاطف.

"على العكس تماماً، ظننت أنهم سيتكالبون علي، لن يتركوني لحظة واحدة قبل أن يصلوا لمرادهم، لكن مضت أيامي الأولى وأنا وحيدٌ في زنزانتي، لم يلتفت إلي أحد، لم يكلمني أحد، ولم أُستدعَ لأي شيء. أربكني هذا الأمر كثيراً، صعّب من توقعي لما هو قادم. في بادئ الأمر لم ينلني الكثير من التعذيب، فقد أوكلوا المهمة للزنزانة لتقوم بذلك. لم يحتج أحدٌ لصفعي فالظلامُ كفيلٌ بهذا، لم يقم أحدٌ بقرصي فالبرودةُ خير من يفعل، لم يحتاجوا لخنقي فالعفونة والرطوبة تكفلتا بهذا أيضاً. حين طالت الأيام وأنا ملقى في العتمة، راح اليأس يتسلل إلى صدري، كنت أراه كل ليلة ينتظرني على وسادة متسخة لا أجد غيرها لألقي عليها رأسي. أحياناً كنت أمتلك عزيمة جيش بأكمله، وأحياناً أخرى أتهاوى كطائر ذبيح اعترضت طريقة رصاصة طائشة. لم أكن أفعل شيئاً سوى الصمت، والتحايل على حواسي وإثارتها حتى لا تنطفئ".

لم يدر الفضيل ماذا يقول له، خرجت من صدره تنهيدة حبلى بالكثير من الأسى، بينما تابع مصطفى القول: "الخوف لا يوصف أيها الفضيل، والأسئلة الكثيرة الخاوية من أي معنى تهوي بالعزيمة، أما الترقب فلا يُفضي في كثير من المرات إلى شيء. حاولتُ أن أكون يقظاً خلال أسابيعي الأولى، كنت أشعر بهم يراقبون كل حركة أقوم بها، لكن بعد أن فشلت الزنزانة في انتزاع ما يتوقعون أني لا زلت أخبئه، راحت وسائل أخرى تجرّب حظها. حينئذ أذاقوني عذاباً لا يوصف، حشروا معي كل أوجاع المتعبين وآلامهم. ملأني الحنق على الحالة التي أوصلوني إليها، فقررت أن أنكفئ على ذاتي، قلتُ في نفسي إلى أين يمكن أن تذهب الأمور أسوأ مما هي عليه؟ كما عزلوني وفرضوا علي الصمت، قررت أنا الصمت أيضاً. وحين انتقلوا بي إلى مرحلة دموية من التحقيق، كنت قد ملأت ذاتي صمتاً، وأصبحت ردودي على جنونهم، تتسم بالبرود والاستفزاز".

"لم يرق لهم أسلوبي، راحت تتعدد طرق تعذيبهم لانتزاع الاعترافات واستخراج الكلمات من فمي. ظنوا أنهم بالقوة سينالون مرادهم، لكنهم لا يعلمون أن الكلمات كالحب، لا يمكن انتزاعه بالقوة. بعد مدة لم أعد أشعر بشيء، الألم يأتي مرة واحدة، بعد ذلك يُصبحُ اعتياداً.. وكونك لا تشعر به لا يعني أنه أدار لك ظهره ورحل. جربوا معي وسائل تحقيق لا تخطر على بال، لا أدري ماذا أرادوا بالضبط، هل أرادوا مزيداً من المعلومات؟ أم تاقوا لأكشف لهم عن أشياء لا تدور سوى في عقولهم المأزومة. صحيح أنهم جربوا معي وسائل عديدة، لكن أنا الآخر كانت

لدي وسائلي. أتصدق لو قلت لك بأنني كنت أتسلى بالتعذيب؟ أتلذذ في مراوغتهم وإرهاقهم، هم يريدون أن ينتهوا من جلسات التحقيق ليعود كل واحد لبيته وعائلته وحياته، أما أنا فأدركت مبكراً أنني لن أخرج من أقبيتهم إلا برفقة الموت، ولن يتعدى مشوار التحقيق اليومي معي، تلك المسافة الممتدة بين عطن الزنزانة وكآبة غرفة التحقيق، فلِمَ أجعل الأمر سهلاً عليهم إذن؟ في كلا الحالتين أنا الخاسر".

"هوّن عليك، يكفي أنك صرت بعيداً عن كل ذاك الجنون". قال الفضيل ليخفف عنه.

ردّ عليه وقد نال منه الإنهاك هذه المرة: "أتعبوني بشكل لا يصدق، ذوت كل أحلامي، تفتت داخلي كل رغبة في العيش، لم أعد أجد سبباً يدفعني للبقاء، خصوصاً أنني لم ألتق أحداً طوال سنوات اعتقالي، لم أسمع شيئاً عن أسرتي، لم يزرني شخص أو يتحدث معي غير تلك الحلقة الضيقة التي كانت تتناوب على تعذيبي، بالكاد قابلت سجانيّ ومن تولوا التحقيق معي واستفزازي، هم الوحيدون الذين كنت أتحسس وجودهم، هم من سمعت أصواتهم وشتائمهم وقهقهاتهم، هم من لا يمكن لي أن أنسى أصواتهم، بل أجزم أنني أستطيع أن أميّز حتى زفرة الواحد منهم من بين ألوف الزفرات.. أتصدق لو قلت لك بأنه كثيراً ما خيّل إلي، أنني الوحيد الذي يشغل ذاك السجن سيئ الصيت. فلا أصوات تتردد في الزنازين، ولا سجناء آخرين كنت أتعثر بهم أو أقف بجوارهم على مشارف الموت،

حاولت أن أصيخ السمع مراراً، سعيت لفرز الكلمات التي يحملها الهواء لعلي أفك شفرته ولو بكلمة واحدة، لكن دون جدوى. ذاك الصمت المتغطرس.. المغسول بالريبة كان يزيد حالتي تعقيداً".

كان يتحدث باندفاع، وكأنه أمضى عمراً ينتظر لحظة كهذه ليريح صدره من صمت أوجعه. كان يلتفت للفضيل من وقت لآخر، فيجده غارقاً في الإنصات. لم يقاطعه الفضيل، بل تركه يتخفف من ثقل سنوات العتمة التي خلّفها ورائه.

أضاف وقد سرت نسمة باردة في وادي المقابر، وألقت في جسديهما شيئاً من القشعريرة: "كل هذا كان أمره هيّناً، لكن أتدري أين تجسّدت مأساتي بالتحديد، كانت في انقطاعي التام عن العالم الخارجي، ففي لحظة واحدة غبت، ودُسّت حكايتي في ثقب من ثقوب النسيان. لم أعرف عن عائلتي شيئاً، وهي بالتأكيد لم تسمع عني، ولا أدري ماذا فعلوا بها؟ لعل الأقسى من هذا كله أنه جرى اعتقالي وزوجتي أماني تحمل في أحشائها جنينها الأول الذي لم يتجاوز أسابيعه الأولى. كنت أراقب نمو الجنين وأتلهف لقدومه، لكن منذ تلك الليلة التي وضعوا فيها العصابة على عيني والقيود في معصمي، رحلت تاركاً ورائي عالماً أسرف كثيراً في قهري".

أحس مصطفى بشيء من الإرهاق، فأخذ الفضيل بيده وقرّبه إليه.

طلب منه أن يتوقف إن كان الحديث يرهقه، حاول أن يغير الموضوع علّه يخفف من حالة القلق التي صبغت ملامحه، لكنه اندفع مجدداً بالقول: "لا أستطيع أن أعود لحياتي تلك، وبذات الوقت، ليس بمقدوري أن أجلب أحداً من عائلتي ليشاركني هذا العالم الباهر الذي صرت جزءاً منه، لذا ليس أمامي الآن سوى حريتي... فهي أكثر ما أحتاج إليه الآن".

عند تلك العبارة توقف برهة، أخذ نفساً عميقاً، ودار بنظره في المكان الذي خفت فيه الضوء إلى حد التلاشي. وقبل أن يكمل حديثه، قال له الفضيل وهو يحدق فيه: "يبدو أن الموت قد أتى بك إلى الضفة الأخرى من الحقيقة. لكن في مكان كهذا، لا يُقدم للآن إجابات حتى عن أنصاف الأسئلة، أيظل للحرية قيمتها وبريقها".

أثاره سؤال الفضيل، هجست روحه بالكثير من الأشياء التي ضيّقت عليه في سنوات حبسه، فردّ وهو يشير للأفق الآخذ في الإعتام: "الحرية كما الحقيقة، لا تحتاج مسوغاً يدفعنا للسير وراءها، والأكثر من هذا، ليس من حق شخص واحد أياً كان، أن يدعي امتلاكها، أو احتكارها لنفسه. لقد يبدو هذا الأمر ساذجاً في نظر الكثيرين، لكن صدقني لو قلت لك بأنني أحارُ أحياناً في التعبير عنها، أتدري لماذا؟ لأنني كثيراً ما خجلت منها وأشفقت عليها، وفكّرت طويلاً في نعيها ورثائها.. لكن في كل مرة يحاصرني شعور كهذا، يستحضر عقلي كلمات لغادة السمّان حفرها نزيلٌ مرهفُ الحس على ما يبدو، على باب الزنزانة التي ورثتها عنه، وفي كل مرة

يتسرب للزنزانة ضوء خفيف يفرُّ من سطوة العتمة، كانت تلك الكلمات تبرق في وجهي، فتلتصق في حدقة العين، اسمع ما تقول: "لو سألني أحدٌ ما هي حريتك لما عرفت ما أقول، ولكنني أعرفُ دائماً حينما يمسّها أحدٌ بسوء، أو يحاول سرقتها مني".

تلك العبارة تعيدهُ على الدوام لعلاقة غامضة ربطته بغادة السمّان، لذا وجد أن سرد تلك القصة سيتيح للفضيل الاقتراب أكثر من وجعه، ومما عزم أمره على القيام به. قال له: "أتدري، ربما في الأمر شيء من الجنون، لو قلت لك أن غادة هذه مدّتني دون أن تقصد، بعزيمة لا نظير لها، كيف لا وهي من عرّفتني ذات يوم إلى عجوز مدهشة، عقدتُ معها صداقة لا توصف، تلك العجوز كانت تزورني في زنزانتي مطلع كل نهار، تجلس بقربي، تحدّق في وجهي المفرط في التعب، فتمدني بقدر وافر من الحياة. حصل هذا منذ أن استوقفتني عبارة لها لم تفارقني طوال سنواتي العشر التي قضيتها وحيداً في السجن. عبارة تقول فيها: "كانت العجوز تحتضر على فراشها، جاء القسيس لصلاتها الأخيرة، فقالت له وهي تلفظ أنفاسها: سترى كيف سأشفى مع الوقت".

"أنا يا سيدي مثل تلك العجوز، سأشفى ليس مع الوقت فحسب، بل مع الموت أيضاً.. لا يهمني أين أنا الآن، في هذه المقابر المتربة التي منحت حياتي مذاقاً مختلفاً، أو في عالم بعيد ينتظر قدومي. كل ما أريده هو أن

أمارس أشيائي البسيطة.. لا شأن لي بقصص الآخرين، لا دخل لي بأحد، أريد فقط أن أعوّض روحي عن تلك العذابات التي تجرعتها وحيداً".

نهض الفضيل عن الحجر الذي كان جالساً عليه، نفض الغبار عن أطرافه، وراح يقول: "معك حق، الحرية لا توّزع بالحصص، الناس هنا يا مصطفى يتقاسمون الموت بقدر ما يخشونه، لكن دعني أقول لك شيئاً، لم أجد أحداً قبلك يصرُّ على أن ينحّي الموت جانباً ليستمتع به، ربما قلّةٌ فقط من منحهم الموت شفاءاً من أوجاعهم. لو سألتني ما الشيء الذي أدهشك اكتشافه في هذه المقابر، لقلت لك بأنني اكتشفت أن للموت وجهًا جميلاً لا يكشفُ عنه لأي أحد. أتعلم يا مصطفى ثمة أمر غريب فيما يجري هنا، كل من وصل المقابر وعبر ذاك الباب الذي تراه هناك، جاءها بعد أن استرد بعضاً مما كان ينقصه؛ عوّضه الموت بشيء ما. من كان أعمى عاد وبصره معه، ومن كان أصم عاد وسمعه معه، لقد رأيت في مرات كثيرة قادمين وقد أقعدتهم المفاجأة، بعد أن اكتشفوا أنهم استردوا حواسهم التي انطفأت في العالم العلوي، على كل حال إن كنت تريد أن تعوّض روحك عن عذابات تجرعتها سابقاً، فلك ذلك".

* * *

الفصل الثامن

حين مرّ الفضيلُ على قبره ونادى عليه، أدرك مصطفى أن رحلة استقبال قادم جديد قد لاحت في الأفق.

في حدث كهذا، يكون الجميع قد تجهزوا ومضوا نحو باب المقابر؛ حيث سيدلف من آن له الوصول. يتذكر مصطفى كيف طلب من الفضيل أكثر من مرة إعفائه من المشاركة في هذا الطقس الذي يقبل عليه الجميع بلهفة، لكن إصرار الفضيل وحرصه على أن يكون معه، يدفعانه دوماً للمشاركة على مضض.

حين التفَّ الجميعُ حول باب المقابر، بانتظار لحظة الانعطاف التي سينبثق منها قادمٌ جديد، وبينما يتهامس ويتساءل البعض حول هذا الذي سيشاركهم عالمهم الممعن في الغموض، سُمعت في الأرجاء جلبةٌ غير مفهومة، ثم ساد الصمتُ وعمّت الدهشة حين دلف الباب عددٌ كبيرٌ من القادمين.

كانت تلك كما قيل فيما بعد، أول مرة تشهدُ فيها المقابر وصول هذا العدد دفعةً واحدةً. فبعد أن تلاقت عيون الجميع، وهدأ الغبار الذي خلّفه وصولهم، تفرّس الفضيل ملياً في الوجوه القلقة، ثم تقدم من رجل كان أول من خطى نحوهم، لكن قبل أن يقول الفضيل شيئاً، صاحَ الرجلُ مذعوراً: "أين نحن؟ ما هذا المكان الكالح الذي نتواجد فيه جميعاً؟ من أنتم! ماذا تريدون منا؟".

لم يجبه الفضيل، أجابه رجلٌ أطلّ برأسه من الصفّ الأخير: "أليس الأجدى أن تقولوا لنا من أنتم!".

التفت الفضيل للرجل الذي تحدث توّاً وحدّجه بنظرة غاضبة، ثم قال للقادم بشيء من الطمأنينة: "هوّن عليك، عما قريب ستعرف كل شيء، كل ما في الأمر أننا سبقناكم في الوصول إلى هنا لا أكثر". ردّ القادم بخوف: "سبقتمونا إلى أين؟ كنت قبل قليل في سيارتي، وجهتي كانت مغايرةً تماماً لهذا المكان، صدقوني لم أنشد زيارة كهذه، فهل أخطأت طريقي كما اعتدتُ أن أفعل مؤخراً! هل بإمكاني التراجع؟ يبدو كل شيء غريباً هنا، أرجوكم دعوني أرجع، لن أحكي لأحد شيئاً".

من وراء ذلك القادم المرتبك، الذي افترسته الدهشة، تقدمت فتاةٌ بهيّة الطلّة، عرفوا فيما بعد أن اسمها جمانة، حين اقتربت من الفضيل، عدّلت هندامها بثقة وقالت بعجلة: "من فضلكم، ما هي أقصر الطرق لأغادر

جمعكم هذا؟ كنت في طريقي لمكان غيره قبل أن أجد نفسي هنا أنا الأخرى". علت الدهشة وجوه الحاضرين، الذين نظروا لبعضهم البعض محاولين استيعاب شيئاً مما يجري أمامهم.

عمّ الهدوء بعض الوقت، قبل أن يصيح رجلٌ كان بين القادمين بانبهار: "انتظروا لحظة.. كيف تسنى لي أن أرى ثانية! أنا أراكم جيداً، هل أنا في حلم؟ أيكون هذا ضربٌ من الخديعة أم الإغواء؟ لقد عاد لي بصري، أين أنا! ما هذا المكان الساحر؟". قاطعة آخر تسترُ مزقُ ثياب متسخة جسده المنهك: "هل علي أن أعود للتسوّل من جديد؟ لا يبدو هذا المكان مبشراً لمشرد مثلي".

ثار لغط بين الحضور، تعالت الأصوات، سُمع صوتُ بكاء ممزوج بالخوف والرهبة، واختلطت المشاعر فلم يعد يعرف إلى أين ستؤول الأمور. كان ياسين يراقب ما يجري بدقة، وحين علا الهرج، دفع بشهاب الدين من ظهره، فتزحزح الأخير وتقدم خطوة للأمام، ثم خاطب القادمين بشيء من التشفي: "لم كل هذه الجلبة التي تصنعون؟ ها! إنه الموت.. ألم تكونوا مستعدين له! ألم تدركوا بعد أنكم انتقلتم إلى عالم آخر، أغوتكم الفانية فلم تتنبهوا لما ورائها، الآن انسوا كل ما فات، ارموا وراء ظهوركم كل ما تعرفونه عن تلك الحياة البائسة، تجرّدوا من كل ما يمت لها بصلة، وتعالوا إلى هنا".

ردّت عليه جمانة بحدّة وهي تتفقدُ قرطاً فقد توّاً بعضاً من بريقه: "ومن أنت حتى تكلمنا بهذا الطريقة؟ ثم من قال لك إن حياتي كانت بائسة! لا تقس بؤسك على حيوات الآخرين". احمّر وجه شهاب الدين فصاح فيها بهياج: "لا ترفعي صوتك في وجهي، إياك أن تخاطبيني بهذه الطريقة".

علت الهمهمةُ مجدداً، قال رجل وهو يتحسسُ جسده: "لم يكن الحادث بسببي، انعطفتُ بسيارتي ناحية اليسار، فوجدت الحافلة أمامي، لم يكن بوسعي تفاديها، إياكم أن تظنوا أنني تسببت بهذا. صدقوني ذلك ما حصل، ارتطم رأسي بالزجاج وسمعت صوت اصطدام وتكسّر يصمُّ الآذان.. لم أع شيئاً عقب ذلك، انقطعت صلتي بالعالم منذ تلك اللحظة، والآن حين أفقتْ وجدت نفسي بينكم. ماذا علينا أن نفعل؟".

أجابه رجل حانق يقف على مقربة منه: "ستدفع ثمن خطئك هذا".

أدرك الفضيل أن الجميع مقبلون على حدث غير مسبوق، فعدد القادمين كبير، والجلبة التي أحدثها مجيؤهم نالت من الصمت الذي ساد طويلاً. تقدم منهم مجدداً، وقال بصوت فيه طمأنينة: "بوسع هذا المكان أن يحتوينا معاً، امضوا معي من فضلكم، هنالك متسعٌ للجميع، لكن تذكروا جيداً ليس لأحد ذنبٌ فيما جرى، الموت ليست ساحةً لتصفية الحسابات، وليس المطلوب من أي واحد أن يُسدد الثمن".

بعث صوتهُ القليل من الراحة في نفوسهم القلقة، فمشوا وراءه، بينما عمّ السكون مجدداً.

كان مصطفى يرصد ما يجري باهتمام، ورغم الصداع الذي تسلل إلى رأسه، وعواء الذئب الذي اشتد فجأة حوله، شيّع جموع السائرين بخدر وراء الفضيل، ثم نهض وهمّ بمغادرة المكان. في تلك الأثناء، جاءت منه التفاتة فرأى رجلاً يقف وحيداً قرب باب المقابر. لم يتحرك الرجل خطوةً واحدةً، كان يتطلعُ نحو مصطفى بارتباك وقد استبدت به رجفةٌ غريبةٌ. لم يمض وراء الفضيل كما فعل الباقون، ظل مذعوراً يداري وجهه الذي غرق بشيء من غبار السائرين.

أحس مصطفى باضطراب الرجل القادم توّاً. قال في نفسه تلك رهبةُ البدايات التي لا يمكن اجتيازها بسهولة، نظر في وجهه مجدداً، فألقى ذلك مزيداً من الصفرة في جسد القادم الذي تسمّر في مكانه. لم يدر مصطفى ما به، مشى نحوه وابتسامة دافئة على محياه، حين اقترب منه ومدَّ يداً لمصافحته، حدّق الرجل في وجه مصطفى، ثم خانته ركبتاه وجثا على الأرض.

اقترب منه أكثر، انحنى لمساعدته لكنه ظل على وضعيته، صدر عنه نحيبٌ موجعٌ، وذاب صوتهُ في خوف لا يوصف، قال له مصطفى في محاولة للتخفيف عنه، وطرد شيء من الرعب الذي دقّ أوتاده في تقاطيع

وجهه: "كان عليك أن تمضي وراء الفضيل كما فعل الآخرون، هي رهبةٌ عليك أن تجتازها، هذا أمرٌ لا مفر منه، كلما كنتَ قريباً من الآخرين هوَّن عليك ذلك وحشة المقابر".

لم يجب الرجل بشيء، حرّك مصطفى كتفيه كمن قام بما عليه، وقبل أن يمضي من أمامه سأله لم جثوت على ركبتيك؟ أيتعبك شيء؟ أتعاني من وجع ما؟

لم تصدر عن الرجل أية حركة، أشار هذه المرّة بسبابته نحو فمه، فعرف مصطفى من إشارة الرجل أنه غير قادر على الكلام. فكّر في سؤاله إن كان الخرس قد ولد معه تولّاً، أو أنه جاء به من ذاك العالم، لكنه عدل عن هذا السؤال المحرج. احتار معه، قال له سآخذك لتلحق بالفضيل والآخرين، هزّ الرجل رأسه رافضاً هذا، لم يدر حينها مصطفى غاية الرجل ومقصده، تركه وخطى بعيداً عنه، لكن الرجل نهض بتثاقل ومشى وراءه.

ماذا يفعل مع هذا القادم الصامت الذي اختطف الخوفُ وجهه؟ طلب منه اللحاقَ بالفضيل فرفض، حاول أن يرشده لصف القبور لكنه لم يصغ. سأله حاجته، فأشار له بشيء فهم منه أنه يريد أن يظل بقربه، عندها رضخ مصطفى لطلبه ومشيا سوية.

قال له، محاولاً بعث الطمأنينة في نفسه، إن صدمة البدايات تفعل عادةً شيئاً كهذا، لكن مع مرور الوقت عليك أن تعتاد هذا الأمر، أضافَ وهو ينظر للرجل الذي يتخلف عنه بخطوتين: "أعدتني لأيامي الأولى هنا، أنا بقيتُ صامتاً عدة أيام، لم أستطع أن أنطق ولو كلمةً واحدةً، لكني هزمت صمتي لأنني اشتقت للكلام. أتعلم، يذكرني القلقُ الذي يطلّ من عينيك بنفسي، قد تُدهش لو قلت لك بأن فيكَ شيئاً مما كان بي، ربما ذات الصدمة والملامح، لكن لا عليك، سأكون عوناً لك".

لم يصدق القادم الغريب عينيه وهو يجد نفسه وجهاً لوجه مع مصطفى، أي أحلام ومخاوف تلك التي جمعته الآن به في هذا العالم! حين دلفَ الباب، شأنهُ شأن الآخرين، لمح وجهَ مصطفى من بعيد، ظن للوهلة الأولى أن الكوابيس والهلوسات التي رافقتهُ هو الآخر في أيامه الأخيرة، قد عادت مجدداً، لكن وجعاً دفيناً استفاق فجأة.

شيءٌ ما تصدّع في داخله.

قال في نفسه ذاك وجه مصطفى الذي لا يمكن لي نسيانه، تلك نهايات أصابعه المحروقة، وذاك جسده الذي مزّقتهُ وأنهكتهُ تعذيباً، أيُّ قدر قاس جاء بي إلى هنا! وأيُّ مصير بائس سيلاقيني إن عرفني مصطفى أو كشف أمري، أجيء بي إلى هنا رحمةً بي! لأتطهر قدر استطاعتي من خطاياي وآثامي، أيُّ نهاية تلك التي قادني إليها الموت؟ ماذا سيفعل بي مصطفى لو

عرف من أكون؛ ماذا يمكنُ لسجين أن يفعل بسجّانه الذي أفنى عشر سنوات من عمره في سحقه، ودفعه للموت البطيء يوماً إثر يوم؟

كاد ينهار مجدداً، لكنه تماسك وهو يخطو بحذر وراء مصطفى. تساءل في نفسه مجدداً لم أنقاد إليه إذن؟ إن كنتُ خائفاً منه إلى هذا الحد فلمَ أسير ورائه؟ ألا تقتضي الحكمة أن أتوارى عنه؟ أن أذيب أي شكوك قد تحوم حولي، أن أمدّ مسافة شاسعة بيني وبينه؟ أن أخفي عنه كل ما يمكن أن يفضح هويتي، أو أن أركض قدر استطاعتي مبتعداً عن هذا المكان! لِمَ تبعته إذن وبقيت بقربه؟

لكي تزداد حيرته، لم يجد لأسئلته تلك أية إجابات. أحسّ أنه مدفوعٌ بشيء لا يستطيع فهمه أو كبح جماحه، شيء يربطه بهذا الرجل الذي زرعهُ في العتمة وأوقفه عند حافة الموت عشرات المرات. هجس بكل هذا وهو يخطو وراء مصطفى، الذي كان يهدّئ من روعه، ويصفُ له أبسط الطرق التي تعينه على اجتياز القلق الذائب في تفاصيل هذا المكان.

تكاثرت الأسئلة في ذهن هذا القادم المرتبك، لكنه توقف مطولاً عند سؤال ابتلع كل شيء أمامه؛ ما الموت؟ ألم يقولوا إنه راحةٌ وطمأنينة؟ فكيف يأتي بي إذن إلى حتفي!

حين بقيت تلك الأسئلةُ تحمل حيرتها في جوفها، أيقن أن ثمة شيئا غير مفهوم يجري له. فكّر مجدداً ثم تنهد بشيء من الراحة حين تذكر أنه كان يخفي وجهه عن المساجين، فطوال سنوات حبس مصطفى وتعذيبه لم يتح له أن يرى وجه أي من جلاّديه، فقط الصوت من كان يقوم بدور الوسيط بينهم.

كانت تلك واحدة من الإجراءات الاحترازية التي تطبقُ عادةً في السجون، فوجوه الجلاّدين والمحققين كانت تستتر على الدوام خلف قناع أسود، يخفي الملامح ولا يبرز سوى العينين، خوفاً من أن يتعرف عليهم المساجين، ويقدموا في يوم ما على الانتقام منهم أو من عائلاتهم، ثأراً مما كانوا يفعلونه بهم.

هو صوتي إذن من سيلقي بي للتهكلة، قال مجدداً بينه وبين نفسه، صوتي الذي كان يعذبه ويحفر في رأسه ويقوده للجنون، الآن لو نطقت بكلمة واحدة، أو فرّ من بيني أسناني حرفٌ واحدٌ فسيتعرف علي على الفور. ستنقلب حينها الأدوار، سأصبحُ أنا السجين وسيغدو هو جلاّدي.. سيذيقني دون أدنى شك، مرارةً تعوّض السنوات العشر التي أمضاها وحيداً في سجني.

لم يدر السجّان ماذا يفعل. تصدّع في داخله اليقين، ولم يفق من تلك الهواجس ألا حين وصلا القبر، لحظتئذ، كان وجهه قد تشرب الخوف

تماماً. طلب منه مصطفى الجلوس على حجر قريب ليلتقط شيئاً من أنفاسه التي كانت تخرج من صدره بصعوبة. كان ينظرُ إلى وجهه، فيهرب السجّان بعينيه بعيداً، وكأنه يحاول تجنّب أي لحظة تشتبك فيها العيون، لم يهدأ جسده من الارتجاف، كانت أسنانه تصطك وقدماه تنغرسان في الرمل الناعم، حينها ربت مصطفى على كتفه، وألقى عليه رداءً ليمنح عظامه النافرة القليل من الدفء.

شعر بشيء من الشفقة على ضيفه، فالخوفُ الذي كان يحومُ فوق رأسه، أعادهُ رغماً عنه لرعب تلك الأيام التي قضاها في السجن، لذا قررّ بينه وبين نفسه أن يعمل قدر استطاعته ليريحَ هذا الصامت من آلامه. وبينما يفكرُ في طريقة لتهدئة مخاوفه، مر بهما الفضيل الذي أضفى وجوده شيئاً من الراحة على المكان برمته.

حين طلب الفضيل من القادم الجديد أن يذهب للمكان الذي هيأوه له، أشار له بأنه يودُّ المكوث قرب مصطفى. رجاهُ بحركة من يده أن يسمح له بالبقاء في مكانه، فذلك كما حاول أن يقول له بالإشارة، سيريحه كثيراً.

نظر الفضيل لمصطفى ليسأله عن صمت الرجل، فأخبره أن الرجل فاقدٌ للنطق، دهش الفضيل لكنه ظل على صمته، ثم أستأذن مصطفى إن كان يود لهذا الصامت أن يقيم بقربه فهزّ الأخير رأسه موافقاً، حينئذ

ودعهما ومضى، بينما اتخذ القادم الجديد لنفسه مكاناً ملاصقاً لقدمي مصطفى.

قال له مصطفى لا يمكن لي القبول بهذا، رجاه أن يغير موضعه، لكنه أصرّ على أن يضع رأسه قرب قدمي مصطفى. عندها شمّر مصطفى عن ساعديه، وعمل معه في تهيئة قبره الجديد. حين أتما العمل، أحسّ مصطفى بحاجته للاختلاء بنفسه. شعر برغبته في القيام بشيء لم يجرّبه منذ وقت طويل، دارت في رأسه أشياء كثيرة، ثم سيطر على تفكيره شيء واحد فقط، موسيقى.

***

الفصل التاسع

أيقبَلُ الموتى أن يسمعوا شيئاً من الموسيقى!

تذكّر على الفور عازف الناي بركات الذي قال له في ليلة الشموع، إنه صنع من قصبة جافة ناياً فاتناً، وإنه ما يزال يحتفظ به. أحس مصطفى أن تلك أجمل فكرة طرأت على خاطره، ليس فقط منذ أن اهتدى إلى هذا المكان، بل منذ ليلة اعتقاله.

انعطف بعيداً يبحث عن قبر بركات، فتّش عنه فوجده يقبع وحيداً عند صف المقابر، حين وصله، كان بركات يتمدد في قبره ويده مغروسة في التراب. حين رأى مصطفى، أدرك على الفور الغرض من زيارته. قال له مصطفى بشيء من البشاشة: "أيستطيع نايك أن يرحل بي بعيداً! أحتاج أن أسمع شيئاً وأحلق معه. انفخ في قصبة الناي ودعني أمضي برفقة لحن موجع".

كانت تلك على ما يبدو اللحظة التي انتظرها بركات بفارغ الصبر، سحب يده من تحت التراب وتناول الناي. نفض ذرات التراب عنه وقرّبه من شفتيه ثم نفخ فيه باشتياق.

في تلك اللحظة، سرت في المكان قشعريرة فاتنة، كان دفق اللحن الذي خرج من جوف الناي مثقلاً بالشجن، بينما يميل بركات برأسه مع الناي مانحاً الحالة شيئاً من فتنة صوفيّة.

لم يصدق مصطفى أذنيه، وهو يسمع لأول مرة منذ أكثر من عشر سنوات شيئاً من الموسيقى، كانت أصابع بركات وهي تتناوب على فتحات الناي، تكتم أحزاناً وتهيّج أخرى.

مسّته الموسيقى في الصميم، لم يتمالك نفسه، تشكلت في عينيه غشاوة من الدمع، لم يحبس دموعه كما اعتاد أن يفعل دوماً، بل تركها تسيح على خديه. في تلك اللحظة تذكر أماني التي كانت تضفي بالموسيقى حياةً على كل شي. تذكرها وهي تكرر له دوماً ما قاله فاجنر: "عجيبٌ أمرُ هذه الموسيقى، لا تمسّ شيئاً إلا وتجعله نقياً صافياً". تذكر حياته بتفاصيلها وفرحها وآلامها، عاودته الكثير من الأحلام الباهرة، التي كان يؤمن بها والتي دفع ثمنها سنوات من عمره، تذكّر من تركهم وراءه ومضى دون أن يعرف عنهم شيئاً.

ازداد اللحنُ عذوبةً وازداد هو اضطراباً. أدرك بركات مدى تأثر مصطفى بالعزف، فحاول التوقف ترفّقاً به، لكن مصطفى أشار له بالاستمرار، وكأنه لا يريد لهذا الخيط الذي راح يلظم أحداثاً تداخلت بين عالمين مختلفين، أن ينقطع.

ظل الاثنان مأخوذين بالحالة التي وصلا إليها. كان بركات يداعب الناي بلهفة، فيبث في قصبته شوقاً ساحراً، ويقول باللحن ما يخشى قوله بالكلمات.

أحسّ الاثنان بنشوة لا مثيل لها. قال له بركات بعد أن فارقت قصبةُ الناي شفتيه: "تعلمتُ العزف على يد أستاذ مجنون، سقاني الموسيقى رشفةً برشفة، قلّما كان يعزف أمام أحد، لكن حين يستبد به الشجن، ويصل بعزفه للنشوة، كان يكسر قصبة الناي ثم يجلس ليبكي قربها. كان يقول لي على الدوام من لا تشفى أوجاعه بالموسيقى لن تشفى من شيء آخر. أنا اليوم لن أفعل مثله، لن أكسر هذا الناي الذي هزّ بيباس جوفه هذا الضجر الذي يلف كل شيء حولنا، بل سأبعث في الناي حياة جديدة، وسترى".

رجاهُ مصطفى أن يفعل ذلك، ثم شعر بحاجته لسماع المزيد، فطلب منه مواصلة العزف. راح صوت الناي يسري مجدداً تحت الجلد، يدخل المسام فيوقظ ما تبقى من الروح ويحلّق بها عالياً، لم يشعر مصطفى بنفسه،

لم يدر إلى أين وصل، أحس بشيء يدفعه للنهوض، ربما للانعتاق، للقفز فوق كل تلك الأسوار التي أحاطوه بها، شعر برغبة جامحة في الخطو والدوران بشيء من الدروَشة حول لحن قارص.

ساقته قدماه بعيداً، كان صوت الناي يرافقه، يحاوره، ويذكره بقصص وخيبات لم تفارق خياله بعد. مضى بعيداً عن صف القبور إلى أن راح صوت الناي يخفت شيئاً فشيئاً، وحين أوشك الصوت على التلاشي، وبينما غاب عقله في فتنة الموسيقى ونشوتها، استفاق من شروده على صوت لم يتوقعه البتة، صوت يسأله برقة: "إلى متى سيظل الفارس سجيناً في القلعة؟".

كان صوت حسّان!

كاد قلبهُ يفرّ من مكانه، لحظة أن تطلع إلى يمينه ورأى حسّان يسير بقربه ويعيد عليه السؤال ذاته، لم يصدق عينه. ربما توقع أي شيء إلا أن يتبعه حسّان ويسأله أمراً كهذا، فهذا الصغير الذي حيّر الجميع بشروده، وهذا الصوت الذي أرهق غيابهُ المقابر، هاهو الآن يشرّع العلاقة بينهما على احتمالات شتى.

لم يعرف كيف يجيبه، ظلّ يمشي وحسّان يمشي بجانبه، لكن بقدر ما تضيق المسافة، يتمدد الصمت حولهما. باغتهُ حسّان مجدداً، فقبل أن يختار

الكلمات التي سيرد بها عليه، قال له حسّان: "أشكرك على الحصان الذي تركته لي، لم أكن أعلم أنك تجيد هذا، وأنك تقوم به من أجلي".

ظلّ مصطفى صامتاً، تذكّر الحصان الذي أمضى وقتا طويلاً في نحته، ووضَعَهُ ذات يوم على قبر حسّان. كانت تلك واحدة من الأفكار التي راودته وهو عائد لقبره إثر حديث موجع مع أم طه، يومها تعثر بحجر أحمر اللون، تناول الحجر، نفض عنه الغبار ثم تفحصه ملياً. حينئذ، شيءٌ ما أشعرهُ بأن هذا الحجر باستطاعته كسر حاجز الصمت الذي شيده حسّان حول نفسه.

لم يخيّب الحجرُ ظنه.

حين وصل قبره، أخرج المسمار وراح يحفّ به زوايا الحجر. كانت تلك واحدة من المهارات التي اكتسبها من الحبس، فلسنوات طويلة لم يكن أمامه شيء يقتل به وحدته سوى التقاط وتشكيل حجارة صغيرة كانت تتساقط من زوايا الزنزانة، كان يتناول تلك الحجارة ويمضي أياماً في نحتها ومحاورتها.

كعادة السجن، يأخذ منك كل شيء ويمنحك وقتاً يفيضُ عن حاجتك.

أمضى سنوات يحاور تلك الحجارة، يحفُّ زواياها ويصقل نتوءاتها، فيصنع منها منحوتات عديدة كانت أنيسه الوحيد في ليالي السجن المرهقة. فعل بالحجارة الصغيرة كل شيء، جعل منها أشخاصاً وأشكالاً ونباتات، حاورها وشهد عراكها وصخبها، أنّث بها خواء الزنزانة ووحشتها. فعل بها كل ما يحلو له، ولعل الشيء الوحيد الذي يتحسر عليه هو رحيله قبل الانتهاء من نحت بيادق رقعة شطرنج كان قد خطّها على اسمنت الزنزانة.

في هذا العالم الذي صار جزءاً منه، استكمل عمله الناقص، فصنع بإتقان حجارة جديدة لرقعة شطرنج عمل عليها بكثير من الحرص. لكن كل تلك المنحوتات التي أتمها، لا تعادل في نظره ذاك الحصان، الذي قفز به فوق كل الحواجز التي رفعها حسّان في وجه الجميع.

ذاك الحصان القادم من جوف الصخر، هو من قُدّر له أن يخبّ به نحو حسّان.

ظل حتى هذه اللحظة على صمته، أحس بأن عليه القيام بشيء ما، حتى لا يخسر فرصة نادرة كهذه، تمهل في مشيته قليلاً، نظر لحسّان ثم قال له: "سأخبرك عمّا جرى للفارس وأنا أصنعُ لك طائرة ورقية".

طائرة ورقية! برقت الدهشة في عيني حسّان، فهز رأسه بفرح واقترب منه أكثر. لم يغب حسّان عن باله لحظة واحدة، منذ ذاك اللقاء الذي جلس فيه بقربه، وراح يقصُّ عليه شيئاً من حكاية الفارس. كان يحسُّ بشيء خفيّ يقرّبه من هذا الصغير، شيء في صمته، ملامحه، رقّته المدهشة. حاول أكثر من مرة أن يتجاوز إحساس التعاطف الذي بدا يسيطر عليه، لكنه كلما نحّى هذا الإحساس جانباً، غافله وتسرب لنفسه من شتى الجهات.

لليوم لا يعرف أحدٌ في المقابر، والفضيل على وجه الخصوص، أنه عاهدَ نفسه على أن يعمل ما بوسعه، لانتشال حسّان من مقام الصمت والانزواء. ليس من أجل الفضيل أو أم طه أو أي أحد آخر، بل من أجل حسّان نفسه. شقّ عليه أن يرى صغيراً بمثل هذه الوداعة، يعايشُ الحزن ويهيمُ وحيداً في وحشة العتمة.

صار يتحين الأوقات التي يمضي فيها حسّان بعيداً عن قبره، ليترك له في كل مرة، منحوتةً جديدة.

قبل أن يُقدم على أمر كهذا، فكّر طويلاً في شيء يستطيعُ منحه لهذا الصغير؛ شيء يقدمه له دون أن يحتك به أو يفرضه عليه؟ شيء تتيحه المقابر وتغضّ الطرف عنه، لم يجد أمامه في بادئ الأمر سوى الحجارة. فصار ينتقيها بعناية، ويمضي وقتا طويلاً في نحتها وتشكيلها كأيقونات فاتنة.

بعد أن ينتهي من كل قطعة، يمضي بخفة نحو قبر حسّان، فيتركها له، ثم يجلس بعيداً ليراقب ردة فعله وهو يمسك المنحوتة. في موقف كهذا، لا شيء يعادل سعادته وهو يرى لهفة حسّان حين يقلب الهدية ويحتضنها بكفيه.

وصلا معاً للطرف الغربي لوادي المقابر، لم يكن حتى هذه اللحظة، قد ردّ على سؤال حسّان الذي كان يخطو بجانبه باستمتاع، حين اقتربا من تلة صغيرة، طلب من حسّان الجلوس بينما مضى هو وراء التلة، وعاد ومعه مجموعة خيوط وأسلاك متشابكة وبقايا أوراق قديمة، وعيدان يابسة كان قد جمعها من قبل.

قال لحسّان وهو يُصلّب العيدان ليصنع منها هيكلاً لطائرته الورقية: "بعد أن مرّت عشرة أيام والفارس مسجونٌ في القلعة، سمع في صباح اليوم التالي صوتَ الحراس وهم قادمون نحوه، فتحوا باب السجن وأخرجوه ثم مضوا به إلى الملك الذي كان ينتظره بلهفة. قال له الملك حينما رآه، من أنت أيها الرجل الوضيع حتى تقترب من قلعتي؟ ألا تعرف عقاب من يقدم على فعل كهذا! أجابه الفارس، سيدي الملك، كنت أمرّ بجانب سور القلعة فسمعت صوت فتاة تغني بحزن، وكل ما في الأمر أنني اقتربت من سور القلعة لعلي أعرف ما بها، عندها ألقى حراسك القبض علي ووضعوني بالسجن، وطوال أيام سجني كنت أسمع

الفتاة.... قاطعه الملك بغضب، لا شأن لك بالفتاة، تستحق أكثر من عقوبة السجن على فعلتك هذه".

أتم مصطفى صنع هيكل الطائرة الورقية، ثبتّ العيدان بخيوط من الكتّان، وفرد قطع الورق فوق الطائرة ثم وضع لها ذيلاً ملوناً، وربط أجزائها بحبل طويل لفّه على خشبة صغيرة بحجم راحة اليد. كان حسّان يتطلع باهتمام للطائرة وهي تتشكل أمام عينيه، وحين رفع مصطفى رأسه عنها، توسعت عينا حسّان من الدهشة.

هبت ريحٌ خفيفةٌ كأنها تكشفُ عن رغبتها في مشاركتهما هذه اللحظة، التقط مصطفى تلك الرغبة، ووقف على الفور، ثم خطى بضع خطوات وهو يرفعُ الطائرة لأعلى، مدّ لها مزيداً من الحبل فحملتها الريح وطارت بها عالياً، لم يصدق حسّان نفسه حين ناوله مصطفى الحبل وعلّمه كيف يتحكم بالطائرة، فيجذبها تارة ويرخي لها الحبل تارة أخرى، كان يعيش لحظة ربما لم يختبر لذتها من قبل. ظل الاثنان يحلقان بالطائرة، وظلت الريح تراقب وتشارك في صنع بهجة لم تألفها المقابر من قبل.

لأول مرة منذ سنين يتذوق مصطفى طعم السعادة، لم يكن ثمة شيء آخر في العالم يعادل تلك المسّرة التي لفتهما معاً. كان حسّان يقفز من مكان لآخر ونظرهُ معلّق في الطائرة التي كانت تتهادى بزهو. وفي غمره سعادته

قال لمصطفى بحماس: "أريد أن أري هذه الطائرة للفضيل وأم طه، سيفرحان بها كثيراً".

كانت تلك أول مرة يمضي فيها كل هذا الوقت برفقة حسّان. فبعد أن هدأت الريح ولملم خيوط الطائرة، جلس برفقته على تلة مرتفعة، ثم نظر لحسّان الذي طلب منه أن يكمل له قصة الفارس المسجون.

قال له مصطفى بأن الأميرة التي كانت تبكي في القلعة هي ابنة الملك، وقد غرقت في حزن شديد بعد وفاة والدتها، فحبست نفسها في غرفتها وظلّت تغني لوالدتها كل ليلة علّ قلب الأم يرقّ وترجع لتعيش معها، ورغم محاولات الملك وحاشيته التخفيف عنها، ورغم أنه جلب لها المهرجين من كل مكان، فإن أحداً لم يفلح في ذلك. قال له أيضاً كيف أن الملك عرض على الفارس أن يطلق سراحه إن استطاع أن يفكّ عزلة الأميرة، فقبل الفارس على الفور ليس من أجل حريته فحسب، بل من أجل الأميرة التي أشفق عليها وأحب صوتها الحزين.

"وماذا فعل الفارس لأجلها؟" سأل حسّان بلهفة.

ردّ عليه مصطفى وهو يهمّ بالنهوض: "دع بقية القصة لوقت آخر، أريد أن أعلمك الآن شيئاً ممتعاً". لم يستطع حسّان أن يكبت لهفته لمعرفة

ما جرى للفارس والأميرة الحزينة، فأصرّ على سماع باقي الحكاية. لكن مصطفى وعده باستكمال القصة ثم طلب منه المضي معه.

نهض الاثنان وسارا معاً. دُهش الجميع حين رأوا حسّان يضع يده بيد مصطفى، تهللوا فرحاً وكادت أم طه تقفز من مكانها، لحظة أن مرّ عليها الاثنان ومكثا عندها بعض الوقت. كانت تقرأ الفرح في وجه الصغير الذي بدا وكأنه استعاد شيئاً من عافيته.

حين تركا أم طه، توجه به مصطفى نحو قبره، فأخرج له من تحت التراب بيادق شطرنج كان قد نحتها من قبل. راح يصفُّ البيادق أمامه على قطعة رخام، يتناول واحداً تلو الآخر، فيشرح له اسم كل بيدق ووظيفته، والطريقة التي يناور ويهاجم بها قطع الخصم.

سُرّ حسّان كثيراً، فتحت تلك الرقعة أمامه العالم بأسره.

خلال فترة قصيرة تبدّل حسّان بالكامل. استطاع مصطفى، بكثير من التأني والهدوء، أن يستل من داخله ذاك الطفل الشقي، المتلهف للمتعة والاكتشاف، التوّاق لشيء من بقايا الطفولة وعبثها، والراغب في استعادة علاقته بكل شيء حوله. كان الفضيل يراقب مصطفى بسعادة غامرة، وهو يمضي أوقاته برفقة حسّان، يقصُّ عليه حكايات من أنحاء العالم؛ ويبحر معه في فضاءات شتى.

حكى له مصطفى عن السماء والنجوم، عن الغابات والمطر وتفتّح الأزهار، عن أسرار البحيرات الغارقة في ضباب أشبه بالفضة، عن الثلج وبهجته، عن البحر الشاسع والعالم الغامض السابح في جوفه.

قصّ عليه قصص المخلوقات الخرافية التي تجيدُ الكلام، وتفخُّ النار من أفواهها، وسيَر الأبطال الذين قهروها ووقفوا في وجهها، قرأ له الكثير من الشعر وطاف به في عوالم الأدب وفتنة الأساطير، قرّب له صوراً من ذاك العالم الذي تركه وراءه، قلّد له أصوات الحيوانات، وضحك طويلاً حين طلب منه أكثر من مرة أن يكرر له صياح الديك. رسم له ببقايا حجارة تشبهُ الطبشور، رسومات للشمس والجداول والعصافير وتعاقب الفصول.

علّمه النحت، درّبه على الرسم والخط، بنى له عالماً من الخيال ليحلق فيه، صار يبتكر لأجله ألعاباً لا تخطر على بال، صنع له كرةً لينةً من بقايا قشّ وقماش، حمله على أكتافه، وطاف به في منحدرات المقابر وأطرافها وهو يجيب عن أسئلته، ويحكي له عن كل شيء.

ذات مرة سأل حسّانَ عمّا تعنيه هذه العلاقة بالنسبة له، فلم يعرف كيف يجيب، وحين طرح حسّانُ السؤال ذاته عليه- جرياً على عادة الصغار- فكّر بينه وبين نفسه، ثم روى له بعضاً مما دار ذات يوم بين الثعلب وأمير أنطوان إكسوبري الصغير الذي غادر كوكبه الضئيل، وحطّ

وحيداً على سطح الأرض، يومها قال الثعلب للأمير الصغير: "بالنسبة لك أنا ثعلب من مئة ألف ثعلب، وبالنسبة لي أنت ولد من مئة ألف ولد، حين نصير أصدقاء أصبحُ في نظرك فريداً في العالم، وتصبح في نظري فريداً في العالم".

بقدر ما كان يخُرِجُ حسّانَاً من صمته وعزلته، بقدر ما كان يعيد اكتشاف ذاته من جديد.

وصل مع حسّان لعوالم شاسعة، قطع برفقته مسافات كبيرة ورحل به بعيداً، كان حماسه يتأجج في كل مرة يرى فيها الدهشة ترتسم على وجهه، كان يرد بسعادة على أسئلته التي كانت تتكاثر يوماً بعد يوم. لكن إزاء سؤال واحد بعينه، وقف صامتاً ولم يعرف من أين يأتي له بجواب.

سأله ذات مرة بتأثر: "لماذا أنا هنا.. بعيداً عن أمي؟".

* * *

الفصل العاشر

في كل مرة يعودُ فيها مصطفى لقبره، يكون سجّانه الصامت الذي أصر على أن يجاوره، قد نفضَ الغبار عن القبر ومهّد التراب حوله، والتقط بعناية، ما تناثر فوقه من حصى وعيدان. لم يفهم في بادئ الأمر غرض الرجل وغايته، حاول أن يثنيه عن القيام بهذا، لكنه كان يؤشر له بيديه، فيفهم أنه يفعل هذا عن طيب خاطر.

شعر في كثير من المرات بغرابة تصرفاته، ففي كل مرة ينوي فيها مصطفى القيام بشيء ما، يهبّ الرجل ليحمل عنه حجراً أو يجلب له شيئاً من بعيد، ودّ في كثير من المرات لو يرافقه في خلوته ويظل بقربه، لكن مصطفى كان يعتذر له. في أحيان كثيرة، يجدهُ جالساً يتطلع نحوه بعيون يملؤها الغموض، وحين يستدعيه مصطفى يتهلل وجهه ويهرع ليجلس قرب قدميه.

منذ اللحظة التي التقيا فيها لم يفارق مكانه ذاك. كثيراً ما كان مصطفى يشفق عليه وعلى الصمت الذي أحاط نفسه به، فيجلس ليحكي له علّ

ذلك يخفف عنه وحدته، ويذيب خوفه الذي لم يفتر لحظة. كان مستمعاً جيداً، يصغي لكل شيء يصدر عن مصطفى بانتباه شديد.

في إحدى المرات نوى مصطفى أن يكشف له بعضاً من حكايا سجنه، ظنّ أن هذا قد يسلّي الرجل ويخفف عنه، لكن ما إن بدأ في ذلك، حتى قفز الرجل مذعوراً، وأغلق فم مصطفى بيده. ارتبك مصطفى لردة الفعل، لم يفهم مراده، لكنه أدرك في قرارة نفسه، أن الرجل لا يحتاجُ خوفاً جديداً يضاف لذاك الذي يعشش في عينيه.

لكن من أين لمصطفى أن يعلم أن القصاص الذي قاصصَ به هذا الرجل نفسه، كان أكثر من مجرد محاولة للتطهر من الألم! كان يظنُّ أن ما قام به وهو على قيد الحياة قد شفع له، لكن حين وصل إلى هنا ووجد مصطفى أمامه، عرف على الفور أن التوبةَ يمكن في أحيان كثيرة، أن تصلَ متأخرة.

فبعد أن رحل مصطفى في غرفة التعذيب، وبعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يحدّق به، حصل مع السجّان مالم يكن يتوقعه؛ فقدَ إحساسه بالحياة، سيطر عليه شعورُ الخوف، فارق النوم عينيه، وغزته حالة من البكاء الهستيري، اعتزل الناس وانزوى وحيداً، انتكست صحته ونال منه الشحوب ما نال.

ظلّ طيفُ مصطفى يلاحقه من مكان لآخر، كلما أغمض عينيه طبع الموت وجهه في حدقة العين، فلشهور طويلة ظل يتردد على ذات الزنزانة التي حوت مصطفى، يجلس على بابها، يشتم رائحتها ويبكي بحرقة على بلاطها الذي نال حصته من أجساد المساجين.

ذات مرة، وبعد أن زار تلك الزنزانة للمرة الأخيرة، وحين أنهى اعترافاً أقرب ما يكون لمحاولة استدعاء للموت، شرقَ بدمع ساخن، فتقدم نحوهُ شرطيٌ كان يقف بعيداً عن رطوبة الزنزانة وشرع يقول بينه وبين نفسه: جُنّ الرجل ولا ريب، لكنه لم يقو على نطقها، بل قال له باحترام بالغ: "هوّن عليك سيدي، سنك وصحتك لا تحتملان أمراً كهذا، منذُ أن تقاعدت من العمل، وأنت تفعلُ كل أسبوع الأمر ذاته، لم تخلف ولو موعداً واحداً، أرجوك كُفَّ عن هذا سيدي، إنسَ ما جرى، لا تحمّل نفسك فوق ما تحتمل، ليس أكثر من نزيل بائس قضى كسابقيه في غرف التعذيب".

التفتَ نحوه بأسى، ثم قال وهو يشدُّ بيدين متعرقتين على قضبان زنزانة صدئة: "أعلمُ هذا.. لكن ما لا تعلمه أنت وغيرك، أنني لم أستطع ولو للحظة واحدة، أن أنسى وجه هذا السجين بالذات، وهو يرمقني بتلك النظرة الأخيرة".

ظلت نظرة مصطفى تتربص به، تذكره بما اقترفت يداه، تذيقه عن غير قصد، ذات المرارة التي تجرعها المعتقلون على يديه. لم يكن يظن في يوم من الأيام أن أمراً كهذا سيحصل له، هو لا يتذكر كم سجين مرّ عليه، وكم روحاً أزهقت في أروقة سجنه، كل هذا لم يكن ليحرك ساكناً فيه، لكن حين قرر طيّ هذه الصفحة والالتفات لحياته بعيداً عن شبح السجون، شاء القدر أن يكون مصطفى آخر ضحاياه، وحين رحل مصطفى، أخذ معه دون أن يقصد، بعضاً من حياة الرجل.

ظن أن الرحيل خلاصه، وأنه راحة له من تلك الحياة التي صارت عبئاً عليه، لكن ها هو يبكي الآن عند قدمي مصطفى اللتين تمنى لو يتاح له تقبيلهما. هاهو يندب كل شيء بصمت، يضرب تراب القبر بكفيّه، فيطير الغبار على وجهه مخفياً بعضاً من ملامحه المرهقة.

شعر مصطفى بحرج الحالة التي أحكمت قبضتها على الرجل، أشفق عليه، حاول فعل شيء للتخفيف عنه لكنه كان قد أنهك تماماً.. لم يكن أمامه سوى تركه والمضي بعيداً عن صف القبور.

شرد ذهن مصطفى في أمور شتى، مرّ بهدوء على صف القبور المترامية الأطراف، فكّر في هؤلاء الجالسين أسرى للصمت، الخائفين من أنصاف الحرائق، الهاربين من لعنة الأشياء، التوّاقين لمطر الجنة، المنتظرين قطاراً لم يسمعوا يوماً صافرته ليمضي بهم كل لوجهته، الموعودين بلذة طال

ترقبها، الهاربين من طيش عمر لابد من تسديد نزواته، والساكنين الآن عالماً أشبه ما يكون برغوة الحلم.

غزته هواجس لا حصر لها، كادت دوامة الأسئلة تبتلعه، لكنه بات يعرف كيف يخرج من كمائن القلق.

راح على الفور يفكر بطريقة مغايرة. أمامه أشياء لا حصر لها ليقوم بها، في تلك الأثناء خطرت له فكرة بدت مجنونةً أول الأمر، ثم بعد تفكير عميق، طالها شيءٌ من الفتنة، قرر أن يقيم حفلةً موسيقية.

راقه هذا الأمر، لكنه أدرك أن عليه أن يستشير الفضيل أولاً.

لحسن حظه لمح الفضيل يجلس مع حسّان على صخرة ناتئة، فمضى نحوهما بخفة، وحين اقترب منهما تبسّم الفضيلُ في وجهه، وأفسح له مكاناً ليجلس بقربه، كان حسّان ملتصقاً بالفضيل وقد ارتسمت على وجهه هو الآخر ابتسامة صافية. قال له الفضيل: "كيف لي أن أشكر رجلاً كنتُ على يقين بأنه يعرف كيف يحاور الصمت ويستنطقه. أطلعني حسّان على أمور كثيرة قمت بها، على هداياك الجميلة، والألعاب التي ابتكرتها لأجله، حكى لي أيضاً عن عوالمك وقصصك المدهشة، لم أكن أعلم أنك ساردٌ بارعٌ أيضاً".

شعر مصطفى بزهو لا مثيل له، بدّدت تلك الكلمات القليلَ من الحرج الذي سببه للفضيل في أيامه الأولى، فردّ عليه وهو يتطلعُ بسعادة في عيني حسّان: "أنا مَن دهشت بالاقتراب من هذا الصغير والدخول لعالمه الفاتن. أتصدقني لو قلت لك بأنني أتعلم منه كل مرة شيئاً جديداً". بانت السعادة على وجه حسّان الذي قال للفضيل وهو يلتصق به بمحبة: "متى تلعب معي شطرنج؟ سترى كيف سأهزمك".

ضحك الفضيل والتفت إلى حسّان وضمه بلهفة، حينها قال له مصطفى: "أريد أن أستأذنك بشيئين اثنين، أولهما أريد لحسّان أن يتعلم العزف على الناي، أنا على يقين من أنه سيتقن العزف خلال فترة وجيزة، لقد استشرت بركات وأبدى استعداده، كما أخبرتُ حسّاناً وتشجع كثيراً أليس كذلك؟ أما الأمر الآخر، فأريد أن أدعو لـ.... حفلة موسيقية".

لم يجب الفضيل في أول الأمر، فكّر لحظات بينه وبين نفسه، ثم قال وهو يمسّدُ رأس حسّان بيمينه: "أمرُ حسّان متروك له، إن أراد ذلك فسأكون في غاية السعادة، أما بشأن الحفلة، فدعني أخبرك بأنني لا أغلق باباً في وجه أحد، إن أردتم هذا فافعلوه، لست قيّماً على هذا المكان لأُجيز هذا أو أمنع ذاك".

فرح حسّان بما سمع، قفز على الفور في حضن الفضيل وراح يقبل خدّه، ثم استأذنه للذهاب لأم طه وإبلاغها بالأمر. تحمس مصطفى هو

الآخر، كان يريد أن يمضي مع حسّان ليرسم مزيداً من السعادة على وجه أم طه، لكن الفضيل استبقاه لحاجة في نفسه.

نهض حسّان وخطى بعيداً عنهما، بينما لفّ الفضيلُ عباءته على كتفيه وطلب من مصطفى أن يرافقه.

دمدمت الريحُ من بعيد، واقتربت حاملةً معها غيمةً من الغبار، أحسَّ مصطفى أن الفضيل يريده لأمر ما، فظل يترقب ما سيصدر عنه. لم يطل صمت الفضيل، قال له وقد سبقت كلماته سعلةٌ خفيفةٌ: "سأتحدث لك دون مواربة، ولعلي سأستعينُ بما قال طاغور ذات مرة، فقد قرأت عبارةً له ما تزال لليوم تسكن داخلي. يقول: لا أحبهُ لأنه جميل أو قبيح... أحبهُ لأنه طفلي. الآن لا أدري إن كنت سأخالفُ طاغور فيما ذهب إليه.. لكني أقول لك بأني أحب حسّاناً كثيراً.. أحبه رغم أنه... ليس طفلي".

هبطت العتمة حولهما، وبددت قليلاً من ملامح الرجلين.

صُدم مصطفى مما سمع، التفت بدهشة نحو الفضيل الذي كان يتحدث بهدوء وتأثر. أمعن النظر في وجهه، فأضاف الأخير بعد أن غشيه شيءٌ من الحزن: "لم يشأ الله أن يرزقني بأطفال، لعل هذا قدري، صحيحٌ أني فعلت المستحيل؛ فلم أترك علاجاً، أو حكيماً، أو رُقيةً أو دعاءاً يمكن أن يقودني للطفل إلا وجربته، لكن كل ما قمت به كان دون جدوى.

أتصدق لو قلت لك بأن الحياة منحتني كل شيء أردته، أغدقت علي من كل الجهات، لكن بقي أمر الطفل أشبه بالحسرة الناقصة، والغصّة المريرة في الحلق".

لم يفق مصطفى من حديث الفضيل، جاء وقعُ الصدمة كبيراً عليه، لم يدر ماذا يقول ولا كيف يجاريه في حديثه. ظلّ على صمته فأكمل الفضيل: "قد يبدو الأمرُ صادماً لك أليس كذلك، لكن أتعلم أين تجسدت صدمتي أنا؟ كانت حين منحني هذا العالم، مالم تستطع الحياةُ منحي إياه".

لأي غرض باحَ له الفضيل بذلك! وما هذا الاعتراف المترع بالأسئلة الذي كشفه أمامه! ؟ فكّر في سؤاله عن السبب الذي دفعه للاعتراف، لكن الفضيل عاجله مجدداً: "بعد أن صرتُ جزءاً من هذا العالم الباذخ في صمته والممعن في عزلته، اعتدتُ أن أمضي أوقاتي وحيداً. ذات مرة كنت عند باب المقابر حين سمعتُ بكاءاً خافتاً، اقتربتُ قليلاً فوجدتُ طفلاً صغيراً يتلفت بكل الاتجاهات، كان يرتجفُ من البرد، أما الخوف الذي كسا وجهه فلم أر مثله من قبل، حين تقدمت نحوه انكمش على نفسه، رمشتْ عيناه بسرعة وعلت شفتاهُ رجفةٌ وزرقة، قلت له لا تخف. ابتسمتُ في وجهه وجثوت على ركبتي حتى صرتُ بطوله، قلت له اقترب، أنا بانتظار مجيئك، أتدري ماذا قال لي؟ قال كلمةً لا يمكن لي نسيانها.. سألني هل أنت أبي؟ لم يكن باستطاعتي أن أقول لا. تُرى أيُ عاقل كان باستطاعته أن يقول لطفل مثله لا!! كلمة كتلك كانت كفيلة

بموته مرة ثانية. اقتربتُ منه واحتضنته، قلت له نعم، أنا هو، كنتُ بانتظارك، ثم دثّرته بعباءتي حتى سرى الدفء في أوصاله. لم أشعر من قبل بشعور كهذا، كنت وأنا أحتضن هذا الصغير الذي لا أعلم عنه شيئاً، أعيش في عزّ موتي، لحظةً لم تمنحني إياها حياتي تلك".

مجهداً بدا الفضيل، تسارعت أنفاسه واختلطت بتراب ناعم علا وجهه، سعل مرات عديدة ثم جلس على أول صخرة صادفته. كان ينظر لمصطفى وهو يتحاشى التطلع في عينيه، بينما لم يجد مصطفى ما يقوله له، ظل صامتاً، فعاود الفضيل القول: "حاولتُ أن أمنحه ما يمكن لرجل أن يمنح طفلاً انتظره طويلاً. التصقتُ به والتصق بي، عشتُ بقربه أوقات لا تنسى، منحني كل ما كنت أحتاجه، ثم فجأةً، دبّ الصمت في نفسه، أخذهُ بعيداً عني وعن كل من حاول الاقتراب منه، لم أدع شيئاً إلا وجرّبته، علّي أعيد هذا الصغير لتلك اللحظة التي رأيته فيها، لكن دون جدوى".

كان الفضيل يتحدث بحرقة، وكانت كلماته تصل مصطفى غارقة في الحزن والأسى.

عندها سأله مصطفى باهتمام: "أهذا زرتَ عرّافة المقابر؟". هزّ رأسه وأجاب: "نعم، لكن بقدر ما منحتني الأمل من جهة، عادت وخطفته مني من الجهة الأخرى".

لم يفهم مصطفى ما رمى إليه الفضيل، سأله أن يوضح قصده، فقال وقد ضم ركبتيه إلى صدره وراح يسعل بشدة: "ربما ما زلت تذكر حديثنا ذاك الذي دار على مقربة من قبر أم طه، فقد سبق وأخبرتك شيئاً مما جرى بيني وبين العرّافة عندما زرتها. في الحقيقة، قلت لأم طه وقلت لك فيما بعد، الكلمات التي سمعتها منها حين قالت: تذكّر جيداً، لن يكسر صمتهُ سوى رجل متعب، يأتي المقابر وحيداً... لكن هذا يا مصطفى نصف ما قالت".

"أقالت شيئاً غير هذا؟" سأله باهتمام.

تنهد الفضيلُ بحسرة وأضاف: "نعم، ذاك كان نصف حديثها، أما النصف الآخر فكان الأكثر قلقاً بالنسبة لي، أضافت يومها، تذكّر جيداً، لن يكسر صمته سوى رجل متعب، يأتي المقابر وحيداً... ويمضي به وحيداً".

* * *

الفصل الحادي عشر

عزم أمرهُ على إقامة الحفلة.

منحته موافقة الفضيل وحماسة حسّان واستعداد بركات، دافعاً قوياً للقيام بأمر، عوّل عليه الكثير لجلب شيء من البهجة لهذا العالم الغارق في كآبة لم يسنّها أحد.

تحمس حسّان كثيراً لهذا الأمر، دار برفقته على القبور، وأرادَ أن يختلط بالجميع ويدعوهم للحفلة بنفسه. قال لمصطفى وهو يتنقل معه من قبر لأخر، بإمكانك أن تعتبر أم طه أول الحاضرين، لقد أخبرتها وابتهجت لهذا. سُرّ مصطفى مما سمع، وضع يده بيد حسّان وشدّ عليها، ثم راح يشرح له بشيء من التفصيل سحر الموسيقى ودلالتها، وقدرتها على تغيير نظرة المرء لكل ما يدور حوله.

كان مصطفى يؤمل النفس بأن تنتشلَ الحفلةُ المقابرَ من صمتها، لكن ما لم يكن يتخيله وهو يخبر الجميع بأمرها، أن جواً من السعادة سيشيع هناك.

فقد بدأ وكأن الكل بانتظار مَن ينفخ هذا الرماد الذي جثم على الصدور، مَن ينحي الصمت جانباً ويضفي شيئاً من الحياة على مقابر أنهكها السكون والترقب.

حين أتما طوافهما، غمرهما شعور بالسعادة. فتوجها للجلوس عند قبر حسّان لصفّ بيادق الشطرنج والبدء في نزال جديد.

بدا واضحاً لمصطفى أن الحفلة صارت خلال فترة وجيزة، حديث الجميع، وعلى الرغم من أنه لم يحتج إلى وقت طويل ليبلّغ الجميع بأمرها، إلا أنه كان قد توقف مطولاً عند قبرين اثنين.

قال له رجل تعششُ الكآبة في قسمات وجهه، بعد أن أخبره مصطفى بأمر الحفلة: "أمضيتُ حياتي كلها خائفاً من الموت، أحتمي منه وأتفاداه، أذبح له القرابين ليتركني استمتع بحياتي، كنتُ حين أشعر باقترابه، اعتكفُ في بيتي، أقفل الأبواب وأبتعدُ عن الناس حتى يتوارى شبحه من أمامي. صرتُ بسببه متوجساً كل شيء؛ من المرض، الحسد، الآخرين، العدوى، الأدوية، الحوادث... كنت أبتعد عمّا يمكن أن يغري الموت بالقدوم، كنت أزن حضوره بدقة، لا تتخيل كم أرهقني هذا، ظننتُ في وقت من الأوقات أنني كلما تذللتُ له، غضّ الطرف عني وتناساني، لكن ها أنا بينكم الآن بعد أن سرقني من كل شيء جميل، خيبتي لا يوازيها

شيء. والآن بعد كل هذا تريدني أن أحضر حفلكم المزعوم، أي شيء ينفعُ مع هذا الذي أنا فيه! أنا أبغض الموت يا هذا".

أجابه مصطفى بعدما استاءَ مما سمع: "هنالك أسبابٌ عديدةٌ لكي تبغض الحياة، ولكن ليس ثمة مبرر واحد لتبغض الموت! فعلام أنت حزين إذن؟ لم يعد عندك شيءٌ تخسره أو تخشاه، أو حتى تتذلل له. أكنتَ تُمني النفس بأن يمرّ الموت قربك دون أن يخدشك؟ ألا تعلم أنه الوحيد الذي يعدلُ بيننا عدلاً مطلقاً. تسألني كيف؟ أنظر حولك، إنه لا يحابي أحداً، بل يُخضع الجميع دون استثناء للمصير ذاته. صدّقني لو كنت مكانك لنظرت للأمر بصورة مغايرة، على كل حال ها قد علمت بأمر الحفلة، والأمر متروك لك".

عند قبر جمانة كانت وقفته الثانية.

حين أقبلا عليها، كانت تنفض التراب بضيق عن فستان مغبر. سلّم عليها مصطفى، فردت السلام بحرارة، ثم فردت ذراعيها لتحتضن حسّان وتقبله. أخبرها مصطفى بأمر الحفلة، قال لها بأن المقابر تضم عازف ناي بارع، وإنه سوف يعزف لهم جميعاً.

تحمست جمانة كثيراً، رغم الكآبة التي بانت عليها، وكست وجهها منذ أن دلفت ذاك الباب القابع في أطراف المقابر. قالت له وقد جلست على

حافة القبر بطريقة تنمُّ عن سرور مفاجئ: "هذا أروع شيء سمعته.. أحتاجُ حدثاً مثل هذا، علّه يريح نفسي المتعبة ويخفف عنها قليلاً. أووف ما هذا الضجر الذي يملأ المكان عندكم! أكاد أختنق، هذه أول مرة أعاني فيها بهذا الشكل، متى سنتهي من هذا كله! أتصدق لو قلت لك بأنني لم أكن مستعدة للقدوم إلى هنا.. لم يكن هذا على جدول أعمالي".

لم يعرف بماذا يجيبها، أيقولُ لها بأن الموت لا يعبأ بنا ولا بخططنا، ولا بجداول أعمالنا!

قبل أن يرد، أضافت قائلة: "حياتي كانت مزدحمةً بالسفر والأعمال التي كنت أخطط لإنجازها، كنت أحتاج إلى حياتين على الأقل لأقوم بكل ما كنت أنوي القيام به، جرفتني الحياة، وكان كل شيء حولي يمضي سريعاً، لم أكن ألتفت لشيء، لكن لا أدري ما الذي جرى لي في لحظة واحدة، وجدت نفسي فجأة بينكم. آآآه، لو كنت أعلم أنه سينتهي بي المطاف هكذا، لعملت استعدادي، لأجلت على الأقل مواعيد العمل التي ارتبطت بها، وأنجزت كثيراً من أموري المعلّقة. ما هذه الحالة التي أنا فيها! نال مني الوهن كثيراً، عييت وأنا أبحث عن شيء يرطب لي بشرتي، انظر كيف شحب لوني وبهتت بشرتي، لم تمرّ علي حالة كهذه من قبل".

لم يستطع مصطفى أن يخفي ابتسامته. كان ينوي وداعها واستكمال مشواره، لكنه قررَ الجلوس بقربها وقتاً أطول.

حكى لها عن المقابر وتفاصيلها التي صارت رغماً عنها، جزءاً منها. قال لها بأن العالم الذي يحكمُ الجميع هنا لا يمتُّ لذاك الذي تركوه وراءهم بصلة. الشيء الوحيد الذي يربط العالمين معاً هو حفنة الذكريات التي يجلبها المرء معه، ويصرُّ على الاحتفاظ بها وتذوقها من وقت لآخر. قال لها إن هذا العالم أبسط مما تتخلين، لا يحتاج بالعادة إلى كل التعقيد الذي يرافق حياة الساكنين في أعلى. المقابر رغم شُحّ متعها تدفع بالمرء ليتعرف بصدق على ذاته، ويكون قريباً منها.

أضاف وهو يتطلع لحسّان هذه المرة: "صحيحٌ أن الموت يُفكك بحنكة الكثير من القيود التي كبّلت حياتنا، لكن يمكن له أيضاً أن يزوي بنا في مسارات ضيقة. ما أود قوله هو أن باستطاعتنا أن نعيد علاقتنا بكل شيء حولنا، المهم أن يتاح للواحد منا أن يضع يده ليس على سرّ الموت فحسب، بل على لغز ما بعد الموت أيضاً".

تطلعت فيه جمانة باستغراب، وقالت بصوت يشوبه الفضول: "وكيف لي أن أضع يدي على سرّ الموت.. ولغزه؟".

أجابها مصطفى بعد أن عدّل جلسته: "لا أدري. ليست لدي إجابة شافية، لدي تجربتي إن كانت تستحق السرد، ربما تستطيعين ذلك عندما تنصتين ولو قليلاً لصوت ينبع من داخلك، لنداء سماوي مفعم بالعطف والرحمة، تستطيعين ذلك أيضاً حين تقيسين الطمأنينة والمحبة والسكينة

بمقاييس الموت لا بمقاييس الحياة، فمن العبث أن نُخضع الموتَ للمعايير التي اعتدناها في حياتنا السابقة، ذلك سيصل بنا حتماً إلى طريق مسدود. إن استطعت أن تفعلي ذلك، بإمكانك عندئذ أن تُجددي علاقتك بكل شيء حولك. قد يدهشك ما أقول، وربما يزعجك الأمر حين تعلمين بأنك لن تجدي هنا أياً من مستحضرات التجميل التي تفتقدينها".

تنهدت بشيء من الحسرة، غاصت قليلاً في داخلها الذي شابه شيء من التشتت، ثم راحت تتأمل كلماته، بينما تسرح عيناها في نور ضئيل يغشى المقابر ويغالب سطوة العتمة.

ربتّ على كتفيها وتركها تمتص على مهل ما نثر فوق قبرها من كلمات.

حين ابتعدا عنها قليلاً، سألهُ حسّان عن المقصود بمستحضرات التجميل، فأخبره بأن تلك مطريّات، اعتادت النساءُ وضعها على بشرتهن للحفاظ عليها، ولإضفاء لمسة من الجمال على الوجه والعنق. هزّ حسّان رأسه وسأل بعفوية: "أتفعلُ كل النساء هذا؟ كنت أرى أمي تضع أشياءً كتلك، لكن لا أذكرُ أني رأيت أم طه تقوم بشيء كهذا".

كانت تلك ثاني مرة يذكرُ فيها حسّان أمه، بدا مبتسماً وهو يعقد تلك المقارنة بينها، وبين المرأة التي رعته منذ أن وصل المقابر. أراد مصطفى أن يعرفَ عنه المزيد، عن قصّته، وأمه التي ذكرها بشيء من المحبة، لكنه عدل

عن ذلك حتى لا يهيج عواطف الصغير، ويربك له هذا الهدوء الذي بدا يتلفع به.

خلال فترة وجيزة، صارت الحفلةُ حديث الجميع، وراحت تتضح ملامح المكان الذي سيشهد هذا الحدث الاستثنائي.

فعلى بعد أمتار قليلة من قبر مصطفى، وفي بقعة مستوية تمتد حتى أطراف وادي المقابر، راح سجّان مصطفى يمهدُّ التراب، ويصفُّ الحجارة كأنصاف دوائر، جاعلاً منها شيئاً أقرب إلى المسرح. بحثَ عن حجارة مناسبة ورتبها جنباً إلى جنب، ثم أمضى وقتاً ينفض الغبار عن المكان ويضع الشموع على زواياه. لم يصدق مصطفى عينيه وهو يرى الرجل يقوم بهذا، صحيحٌ أن أحداً لم يوكل له هذا الأمر، لكنه قام بذلك رغبةً منه في عمل شيء يضفي البهجة على مصطفى.

لكن أتحتمل المقابر حدثاً كهذا؟ أرّق هذا السؤال مصطفى طويلاً، لا سيما بعد أن شقَّ أمرُ الحفلة المقابر إلى نصفين.

بدا واضحاً هذه المرة أن شرخاً حقيقياً أصاب سكون المكان وبات يهدد صمته المعهود. كان في مقدمة من وقفوا في وجه تلك الفكرة المجنونة كما أسموها، ياسين وشهاب الدين وثلة من الرجال الذين لم يرق لهم الأمر. أول شيء فعلوه هو أن داروا على القبور في محاولة لخنق تلك الفكرة، التي

أيقنوا أنها ستطلق مارد العبث من قمقمه، لكن حين فشلوا في تأليب الجميع، بحثوا عن حل آخر فكان أن تصدوا لجار مصطفى الصامت، وهو يهيئ المكان للحفلة.

حاولوا التضييق عليه، والتحرش به وعمدوا حتى إلى إيذائه.

في كل مرة كان يجلب فيها الرجل حجارةً من وادي المقابر ويصفّها بنسق ما، كانوا يباغتونه، فيقتلعون الحجارةَ من مكانها، ويعيثون تخريباً في المكان، كرروا هذا الأمر أكثر من مرة حتى فارَ دمه، وكاد ينفجر في وجوههم. لم يكن باستطاعته ردعهم بالصوت، لا يزال قلقاً من أن يكشفَ الصوتُ هويته. لكن غضبه والوميض الذي اتقّد في عينيه أوصل لهم رسالة حازمة بضرورة تجنبه والابتعاد عنه.

بدا واضحاً أن الرجل يملكُ من العزيمة والغضب ما يكفي لردعهم، فتواروا مسرعين.

قال في نفسه وهو يشيعهم بنظرات حارقة، بينما يعيد ترتيب الحجارة وتهيئة الشموع، لو علموا مقدار الخوف الذي كان يرافق حضوري، أو الوجع الذي كنت أزرعهُ في نفوس المساجين حين تطأ قدماي أرض السجن، لما تجرأ أحدهم على التقدم خطوة واحدة نحوي.

مع هذا لم يستسلم ياسين ومن معه.

ذهبوا إلى الفضيل فصدّهم بحزم، سجّان مصطفى الصامت ردعهم مجدداً عن الاقتراب من المكان الذي كان يهيئه بحرص شديد، أما مصطفى فجادلهم طويلاً، وحين وصل معهم لطريق مسدود، لم يعد يعر تحرشاتهم أي اهتمام. حين فشلت محاولاتهم في وقف سير التحضير للحفلة لجأوا لشيء آخر، هددوا بركات بالقوة. كانت تلك آخر مسألة يمكن أن تخطر ببال مصطفى، الذي استشاط غضباً حينما سرّب له بركات بعضاً مما جرى معه.

جاؤوا إلى قبر بركات وهم يتخفّون بالعتمة، أحاطوا به من كل الجهات، حاول النهوض فضيقوا عليه المكان، قالوا له إن هذا الناي التي تنفخُ فيه ما هو إلا نذيرُ شؤم، هو صوتُ الشيطان ولا ريب، فإياك أن توقظ الشيطان من رقدته.

أضافوا، وقد بثّ مظهرهم وحديثهم الهلع في نفسه، أن الخطيئة التي ستقدم عليها لا تغتفر، فحذار من انجرارك وراء ما يوهمونك به، عندها ستقحمُ نفسك في مواجهة لا طائل من ورائها. أنجُ بنفسك ودع كل شيء كما كان، امضِ بعيداً عن تلك المزالق فذلك أأمن لك.

لم يستطع بركات أن يخفي هلعه مما قالوا، أرعبتهُ وجوههم المحتقنة، وكلماتهم المحشوة بالتهديد، أخافهُ أكثر ذلك العبوس الذي خلّفه حضورهم. تردد في بادئ الأمر، فأخفى ما جرى معه لبعض الوقت، ثم

قرر أن يخبر مصطفى الذي كان يعي في قرارة نفسه أن مثل هذه المواجهة ستكلفه الكثير، لكن رغم ذلك قرر المضي فيما عزم أمره عليه.

ذهب مصطفى مجدداً لرؤية الفضيل، أعاد عليه ما قاله له ذات مرة بأنه لا ينوي مواجهة أحد أو الاحتكاك بأحد، كل ما يريده هو أن يفعلَ أشياءَ بسيطة لنفسه وللآخرين، هو لم يفرض على أحد الحضور، كل من سيأتي، سيأتي بملء إرادته.

هدّأ الفضيل قليلاً من غضبه، ثم طلب منه مرافقته للحديث مع ياسين.

حين أقبلا عليهم، كان الكدر يغطي وجه ياسين ومن معه، وما إن رأوا الفضيل ومصطفى، حتى نهض ياسين ووقف في طريقهما. زفر ياسين في وجه مصطفى بشيء من الصلف، ثم قال وهو يشهر سبابته اليمنى في وجهه: "عفوك يا صاحب العفو، نايٌ وموسيقى بعد الموت.. وفي جوف المقابر! أي استهزاء هذا! أنت امرؤٌ لا تزن أفعالك. في هذه المقابر لن نسمح لأحد بخدش الموت".

لم يستطع مصطفى أن يداري غضبه. لأول مرة منذ زمن طويل، يشعر بمثل هذا الغليان، كان خلال سنوات سجنه يدرّب نفسه على البرود

وضبط النفس، فيبعث هذا التجاهل شيئاً من الجنون في نفوس سجانيه، كان يقاوم سعارهم بالصمت، وهيجانهم بحالة من السكينة المطلقة.

لكن لا يدري كيف فار الغضبُ في داخله هذه المرة، فوجد نفسه يقول لياسين ومن معه وسط دهشة الفضيل: "إن كان ما أقوم به يعد خطيئة في نظرك، فتأكد بأني لن أحمّل أحداً وزر أفعالي، ولن أطلب منك إن تقاسمني خطاياي. لا أدري ماذا أقول لك، رأسي مليءٌ بالأسئلة، لكن أمراً واحداً يقلقني، ولا أجد له إلى الآن جواباً مقنعاً. قل لي لماذا أرعبتك الحفلة؟ أتخاف حقاً من الناي! أيفعلُ بك كل هذا! إن خشيت النايَ فأنت حرّ.. هذا شأنك رغم أني لا أعلم سبباً لذلك، لكن ما أعلمه جيداً، أن السماء أكبر من أن تعكّر صفوها قصبة ناي".

لم يتوقع ياسين أن يجابهه مصطفى بتلك الكلمات، أدار ظهره وزمجر بغضب، ثم قال متجاهلاً مصطفى، وموجهاً حديثه للفضيل: "جهلهُ وعنادهُ لا يسوغان له الذهاب بالمقابر إلى الهاوية، لا كلام لنا معه بعد الآن، ضاق المكان ولم يعد يتسع لمثل هذه الترهات".

تركهم الفضيل بعد أن تفرّق الجميع. عاد إلى قبره وحالةٌ من القلق تسيطر عليه، فكّر في لحظة من اللحظات أن يطلب من الجميع درء هذا

الاحتقان الذي ينذر بشيء مربك، فكّر في الطلب منهم صرف النظر عن الحفلة أو تأجيلها حتى تهدأ النفوس، صوناً لسكينة هشّة لا يبدو أن عودها سيقوى. حاول بينه وبين نفسه جسّ نبض البعض بشأن ما يفكر به، لكن الاندفاع والحماس اللذين رآهما في الوجوه، والمسرة التي دبّت في المقابر، بالإضافة للبهجة الذي أشرقت في عيني حسّان، جعله يعدلُ عن رأيه.

ذهب الفضيل أخيرا لما ذهبوا إليه.

***

الفصل الثاني عشر

فاحت في زنزانة مصطفى روائح فاتنة، غلبت روائح العطن التي تعشش من زواياها، كان ثمة ضوء خافت يتشكل على الجدران، بينما صوت موسيقى يوشك أن يعلو ويمضي بمن في الزنزانة نحو عالم باهر.

بعد أن تقاطر الجميع للمكان الذي أُعد بإتقان، وبعد أن تزينت الساحة بالشموع وغمر المكان دفء لذيذ، اتخذ كل واحد موقعه بانتظار وصول بركات. كانت وجوه الحاضرين الذين أمّوا المكان تشعُّ راحة، وهم يتبادلون كلمات قليلة، ويمنون النفس بعزف تاقوا إليه طويلاً. وصل الفضيل إلى مكان الحفل، جاء حضوره ليضفي رونقاً خاصاً، أفسحوا له فجلس في المقدمة، وأجلس حسّاناً الذي كان مندهشاً مما يرى أمامه، في حضنه.

كان مصطفى يتحسس البهجة التي تسري في عروق الحاضرين. بدا له أن ثمة صلات خفية راحت تنعقد بين الجميع، فالطريقة التي اختارها كل واحد للجلوس، والهمس الذي سرى بينهم، بالإضافة إلى الابتسامات

والكلمات التي تبادلوها وتردد صداها في الأرجاء، دلت على أن شيئاً من التقارب راح ينضج على مهل.

بيد أن كل هذا الذي يجري أمامه، لم يمنع عقله عن التفكير في أمر آخر، تأخُر بركات.

خلّف تأخر بركات عن الحضور شيئاً من القلق في نفوس الحاضرين، راحوا يتطلعون في وجوه بعضهم، وكأنهم يبحثون عمّن يفسر لهم ما يجري. أحسّ مصطفى بأن عليه القيام بشيء ما، فوقف وسط الجميع وقال محاولاً بثّ شيء من الطمأنينة: "لا أعرف سبباً لتأخر بركات، لكني على قناعة بأنه سيحضر، لقد أكد لي هذا. على كل حال هنالك أمرٌ شخصي، أجد نفسي ميالاً للبوح به لكم. أتعلمون، لم أكن أظن أنني سأقوى على الوقوف أمام جمع غفير كهذا، فالعزلة التي نمت في داخلي خلال سنوات طوال، كانت من الشراسة بحيث أعاقت عندي أي تفكير في أمر كهذا، لكن بفضلكم أنتم، أوصدتُ الباب في وجه عزلتي وانزوائي وأقصيتهما بعيداً".

أضاف وهم مصغون باهتمام: "اكتشفتُ بما أتيح لي من وقت، وأنا أتجولُ بينكم، أن هذا المكان يضمُّ أشخاصاً مدهشين، قد لا يخطر ببالكم مدى البهجة التي يمكن أن يضيفوها إلى هذه العتمة الموحشة. هنا أنتم.. بذكرياتكم وقصصكم وفرحكم وخوفكم ورجائكم، هنا ما تبقى من

أحلام باستطاعتكم إيقاظها والتحرش بها. هذه المقابر تحوي توقكم لكل شيء تركتموه معلقاً، لا تنسوا أيضاً أنها تضم شاعراً باستطاعته أن يدخل في عمق الأشياء دون مواربة، الآن إن سمحتم لي، سأطلب منه أن يقرأ لنا شيئاً من ديوان شعري، أخبرني أنه لم يتسن له إتمامه في حياته تلك.. ربما أصدق النصوص تلك التي يتاح للمرء أن يتمها بعد أن يباغته الموت، ويضع يده بيده".

راقت الفكرة للجميع، صفقوا بحرارة فتقدم الشاعر الذي وقف وسطهم، وحيّاهم بكثير من الاحترام. ثم جال ببصره على الجميع، وراح يقول:

"لم أكن أعلمُ أنني سأصُبُّ ما تبقى لي من قصائد في جرار الموتْ
قصائدَ إن شئتم بطعم الرحيل وخدر المقابر
هنا عالـمٌ نجهلُ بعض تفاصيله
فنجلس أسرى له
لا تحايُلَ نمارسهُ على الوقت
ولا شيءَ يحرثُ هذا الصمت سوى ضجر باهت
جئنا إلى هنا بسرعة
لم نجلب معنا زيتاً للفوانيس، أو مكعّبات سُكّر
لم نُفتش عن غيم حائر
أو نطيّرَ نوارسَ خجلى عندَ خاصرة البحر
لم نخبئ في جيوبنا حبّات كرز، ولم نفطن لعلب الأدوية".

صفقّت جمانة دون أن تشعر بنفسها، فتبعها الجميع بينما توقف الشاعر قليلاً ليتأمل المشهد الذي يرسم أمامه. من بعيد سُمعت أصوات أكفّهم وهي تترد في جنبات المقابر، بينما تعالت الآهات التي أثنت على نشيد راح يعلو إيقاعه أكثر فأكثر. كان الشاعر يرافق كلماته بنظرات يسددها نحو جمانة فترد هي بعيون ذابلة، وغارقة في الهدوء.

أخذ الشاعر نفساً عميقاً، وقال موجهاً كلامه للجميع، ومتطلعاً للمدى المفتوح أمامه باتساع:

"عكسَ ما يوهمنا به البعضُ
ممن قالوا بأنَ الموتَ مليءٌ بالديدان
هاكُم ما جرى معي
حين زارني الموت، لم يوجعني بشيء
كان صامتاً
تفوحُ مع مقدمه رائحةُ حياة
حياةٌ مع الموت!
راقني هذا الأمر، فتبعتهُ بقلق
وصلتُ المقابرَ مرتبكاً
رحتُ أتلفتُ حولي
فوجدتُ أولَ ما وجدت بومةً مرقّطةً تديرُ رأسها بيقظة
وترصدُ العتمةَ بعينين واسعتين
سمعتُ غراباً يلثغُ في النعيق

ويحاولُ بمكر أن يغوي طائراً آخر
في هذه المقابر بمقدوري القول إنني شهدتُ استفاقةً كسلى للريح..
فرجوتها كي تحملُ وجعي وترحل
فأظل وحيداً، أبحثُ منذ أن كنتُ هناااااااك
عن امرأة تراوغُ المستحيل
وتعرفُ كيفَ تريقُ بعضاً من خجلِ الزنابقَ
في هذه المقابر
تولدُ الآنَ أمامي امرأةٌ لم أعثر عليها من قبل
في هذه المقابر
أقسمُ بأنني على استعداد لأن أنحني للموت
إن تيقنتُ أنه قد ساقني إلى هنا
لأقابلَ امرأةً لم تسعفني حياتي تلك، في العثور عليها".

أكمل الشاعر قصيدته وسط احتفاء الجميع، أنستهم طريقته الملفتة في الإلقاء وتطويع الحنجرة والضغط على مخارج الحروف، التأخر الغامض لبركات. طلبوا منه أن يقرأ المزيد، خصوصاً بعد أيقن الجميع أن كلماته صارت أكثر وهجاً في حضرة جمانة.

كان كلما أتم نشيداً ألهبوا حماسه ورجوه ليستمر في الإلقاء.

وحده مصطفى كان يتلفت بكل الاتجاهات، باحثاً عن خيال يلوح في الأفق. فكّر في الذهاب لقبر بركات أو البحث عنه في الأرجاء، لكنه أدرك أن انسحابه سيربك الجميع، خصوصاً الفضيل الذي بدا متلذذاً بما يسمع.

كان سجّانه السابق وجاره في القبر يراقبه باهتمام، حين شعر أن تفكيره منصبٌ على غياب بركات، أومأ له بإشارة فهم منها مصطفى أنه سيقوم للبحث عنه. ألقى هذا راحة في نفسه، فهزّ رأسه موافقاً. انسل السجّان بخفة دون أن يشعر أحداً، وما إن أنهى الشاعر قصيدته الأخيرة، حتى أطلّ وبرفقته بركات.

كان الخوف جلياً على وجه بركات، لكن ما لبثت أن راقت ملامحه بعض الشيء حين هللّ الحاضرون لقدومه. حاول مصطفى أن يعرف السبب وراء تأخره لكن بركات لم يرد أن يفسد الحفلة على الجميع. قال حين سألوه عن سبب التأخير، بأنه مضى بعيداً عن وادي المقابر، ولم يُقدّر الوقت اللازم له للعودة واللحاق بالحفلة.

سايره مصطفى فيما قال، لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أن ثمة أمراً ما قد حصل، وأعاق حضوره مبكراً.

حين اتخذ بركات موقعه في صدر المكان، زمّ شفتيه على قصبة الناي، ففاحت في الأرجاء روائح فاتنة، وحين بث في قصبته شيئاً من أنفاسه سرت في العروق موسيقى حزينة، أخذت الجميع رغماً عنهم لعوالم لم يختبروها من قبل. كان الناي يسحب الآهات من صدور الحاضرين، ويدفع الرؤوس للتمايل وهي تسبح في شجن حزين وساحر.

أطال بركات العزف، راح وجع المقامات التي عزفها يعشش في زوايا المقابر، فيوقظ دمعة هنا ويسرق أخرى من هناك، أما كل معزوفة حررها بفتنة من يباس القصبة، وأطلقها من بين فتحات الناي، فكانت من الرقة بحيث أحالت خوفهم وضجرهم لشيء أقرب للسمو.

حين أنهى بركات العزف وارتاحت عروق رقبته، احتاج الحضور بعض الوقت ليستفيقوا من نشوتهم.

وقف الجميع رغماً عنهم، صفقوا بحرارة وأطالوا التصفيق. لم يصدق بركات نفسه وهو يرى ما فعلته الموسيقى بمن حضر، انحنى لهم وصافحهم واحداً تلو الآخر. كان يعي في قرارة نفسه بأن حفله هذا لا يعادله شيء، فالطريقة التي كان يعزف بها، والخدر اللذيذ الذي سرى بين الحضور، هوّنا عليه بعضاً مما حصل له.

كان حسّان آخر من سلّم على بركات، حين وضع يده بيده، اقترب منه وهمس في أذنه: "متى تحبُ أن أعلّمك العزف؟ لقد صنعت لأجلك ناياً مدهشاً".

انتهت الحفلة كما أريد لها، لكن ظل صدى عزف بركات يرفرف في الأجواء، ويحتُّ قشرة الصمت التي بلغت سماكتها حداً لا يطاق. حين أوشك بركات على المغادرة، حضنه مصطفى بحرارة، ثم سار معه علّه يسمع شيئاً عمّا جرى، لكنه ظل صامتاً. أوصله مصطفى لقبره وشكره بعد أن شدّ على يديه، ثم عاد وحيداً وهو يدندن بلحن علق في باله.

على مقربة من قبره، ظهر له ياسين ومعه ثلاثة رجال يراهم لأول مرة. استوقفوه بغلظة، وكان الشرر يقدح من عيونهم، حاول تفاديهم لكنهم أحاطوا به من كل الجهات.

بدا له أن شيئاً ما سيحصل له عما قريب، تقدم ياسين خطوة منه، فأشاح بوجهه عنه، عندئذ أشهر ياسين في وجهه عصاً غليظةً، كان يخفيها وراء ظهره.

كانت العتمة قد أحكمت طوقها على المقابر، أما الصمت فعاود مشاكسته مجدداً للقبور.

قال له ياسين وهو يهيئ نفسه لفعل أحمق: "حذّرتك أكثر من مرة لكنك أبيت أن تصغي. عنادك وجهلك سيؤديان بك إلى التهلكة، أتظن أن المقابر ملك لك لتفعل بها ما تشاء؟ والآن قل لي أتعجبك هذه الحفلة التي أفسدت بها مزاج الأموات وأغرقت المقابر في وحلها! هذا ما كان ينقص الموت إذن، أن تلطّخ سيرته بهذه الصورة! لكني لن أقف صامتاً، لا عافاني الله إن لم أضع حداً لكل هذا، وأقتصّ منكم جميعاً".

وهوى بالعصا على رأس مصطفى.

* * *

الفصـل الثالث عشـر

أطبق السكون مجدداً على المكان، شيءٌ من الخوف والرهبة عاودا حضورهما اللزج على شواهد القبور. انكفأ كل واحد على نفسه بعد أن سرت شائعاتٌ عديدةٌ بشأن ما جرى لمصطفى، وما يُدبّر للمقابر في الخفاء. قلّت الحركة وضمرت، بيد أن المقابر التي نالها الضجر، شهدت كما لم تشهد من قبل، صولات لياسين ومن معه.

ساور الجميع في فترة ما شعورٌ جميلٌ بأن المقابر بدأت تلتقط أنفاسها وتتهادى بشيء من الطمأنينة، فالخروج من حضن الصمت المفرط في كآبته، والالتفاف على ما يحيكه الموت، كانت شواهد تعد بأشياء كثيرة، لكن قبل أن تخطو نحو عتبات جديدة، حصل بها ما لم تحمد عقباه.

فعقب الإجهاز على مصطفى، وتداول تلك الحادثة كدليل لا يقبل الدحض على ما يبيته ياسين ومن معه، سقط كل شيء في أيديهم؛ قطّعوا أوصال المكان، وتفرقوا بين الجميع، فارضين عليهم صمتاً إجبارياً، وجالبين مزيداً من العتمة والضجر.

أطفأوا عن عمد، كل ذبالة يمكن أن تنوس بشيء من البهجة.

تعرضت جمانة وشاعر المقابر، وكثيرون ممن شهدوا تلك الحفلة لمضايقات شتى، أما بركات فخسر نايه مجدداً بعد أن شرخوه أمامه وهو يتفرج بحسرة. لم تكن تلك أول مرة يفعلون هذا بالناي، قاموا بذلك قبل الحفلة أيضاً، وما تأخر بركات عن الالتحاق بالحفلة، إلا لانشغاله طويلاً في البحث عن قصبة جديدة، لجعلها ناياً عوضاً عن ذاك الذي أجهزوا عليه. وقتئذ، أيقن بركات بما لا يدع مجالاً للشك، أن ثمة من يقف وراء لصوص المقابر حين أقدموا على نبش قبره، ومحاولة سرقة الناي، بعد أن أنكر وجوده وأجاد إخفائه.

في تلك الأثناء كان قد ظهر بين الجميع من عرفوا بلصوص المقابر؛ كانوا زمرة من الرجال غير مألوفي الملامح، جابوا القبور وداهموها بحثاً عن أي شيء ثمين يمكن أن تحتويه، عاثوا فساداً وداسوا حرمة القبور، وتلصصوا على ساكنيها، سارقين منهم شيئاً من الطمأنينة التي كثيراً ما وعدهم بها الموت.

كان انتشار هؤلاء أقرب إلى كابوس آخر ظلّ يؤرق الجميع. ولم يكن هنالك تفسير لهذا الانقلاب والخرس الذي باغت الجميع، سوى عبارة واحدة ظل يرددها ياسين ورجاله بغلظة في وجه من يجرؤ على السؤال: "نريد أن نعيد لكم رشدكم، وللموت هيبته".

حين استفاق مصطفى من الإغماءة التي ألمت به جرّاء الضربة التي تعرض لها، وجد نفسه ممدداً في القبر، تلفّت حوله فوجد بقربه سجّانه وأم طه وحسّاناً. فتح عينيه وراح ينظر كمن يلاحقُ غبشاً مخادعاً يحومُ فوق رأسه، حاول النهوض فسرى في جسده ألم حاد. عاود التمدد مرة أخرى، وهو يتحسس موقع الضربة التي انتفخت وازرّق مكانها.

شيء ما أعاده لألم السجن، أيكون حقاً قد عاد توّاً من جلسة تعذيب!! تاه قليلاً في هلوسة لا يعرف إلى أين أوصلته. عندما تململ في قبره، سأله حسّان عمّا جرى له، فقال له بأنه تعثر ووقع على طرف حجر كبير، ولا يعرف من أتى به ووضعه هنا. هزّ السجّان الصامت رأسه موافقاً على الرواية التي نسجها مصطفى على عجل، بينما راحت أم طه تُتمتم بكلمات غير مفهومة، وترطب مكان الجرح بقليل من الماء العكر.

ما من شيء كان يساوي عند مصطفى تلك اللهفة التي رآها في عيني حسّان، كان ملتصقاً به والخوف باد على وجهه.

لأول مرة منذ سنوات طوال يرى مثل هذا التعاطف في عيون الآخرين، أنسته رقة أم طه، ولهفة حسّان وقلقه الصادق عليه، كلَ الوجع الذي كان ينخر في رأسه، أما سجّانهُ الذي جلس كعادته عند أطراف قدميه، فكانت عيونه تحكي رغبةً دفينةً في تلقين من فعل هذا درساً لا ينسى.

لكن رغم الألم الذي ظل يتصاعد في رأسه، وأطرافه التي عادت تنزف لسبب لا يعلمه، لم يرد أن يصب المزيد من الزيت على نار بدأ دخانها يُشم، فرجا سجانه التروي وتجاوز ما حصل.

مرت الأيام التي تلت تلك الحادثة بهدوء مشوب بالقلق، كان مصطفى يراقب، بحرص وأسف، التغيير الذي صبغ كل شيء حوله. ليس هذا ما حلم به وما كان يمني النفس بالرحيل إليه يوماً ما.

لم يصدر عن الفضيل ما يدل على نيته القيام بشيء ما، كان يمضي جلّ وقته صامتاً، يتطلع نحو الأفق بقلق كبير، محاولاً قدر الإمكان تجنب الجميع، أما مصطفى فصار يزجي معظم وقته وهو يحكي لحسّان الجالس بقربه والذي لم يفارقه لحظة، قصصاً من أنحاء متفرقة، ويرد على الأسئلة المدهشة التي أمطره به.

وحده السجّان كان يغلي من الغضب. لم ترقه الطريقة التي أهين بها مصطفى، والضربة التي تعرض لها.

لم يكن ما جرى لمصطفى وحده ما يتعب السجّان، بل كان للصمت الذي أغرق نفسه فيه دورٌ في إرهاقه أيضاً، فهو لم يعتد كل هذا الكبت، ولم يعد قادراً على حبس الكلمات التي صارت تلدغه كعقرب لئيم. كثيراً ما

فكر في طريقة ما لاجتياز هذا القلق المدفون في داخله، قلقٌ وكزه عن عمد، فهيّج بخبث ما لم يعد يقوى على إنكاره.

دارت في رأسه المثقل بالتعب عشرات الحكايا، لكن لا شيء محدداً كان يفكر فيه. بدا عليه الشرود وكأنه مقبلٌ على مواجهة لا قبل له بها. كانت فتنة الكلمات التي حبسها طويلاً تطل من بين أسنانه، ولولا حرصه على الإطباق عليها لأوقع نفسه في مأزق حقيقي.

لكن كلما أرغم نفسه على الصمت، ثارت في داخله زوابع كثيرة، وخلّفت لديه رغبةً صادقة في التطهر والاعتراف. لذا ظل يؤجل قراره إلى أن عزم أمره على القيام بهذا مهما كلفه الأمر.

كان مصطفى قد نهض حينها بتثاقل، وراح يمشي بعيداً عن صفّ المقابر التي امتلأت زواياها بالأتربة واتشحت بالمزيد من السواد. القبور التي مر بها باردةٌ وشاحبة، من ذاك الشحوب الذي يلازمُ الأمكنة، ويحيلها إلى غصّة في الحلق، أما من يرقدون بها فصامتون صمتَ من ضَجر الكلام وعافه.

حيّره هذا المشهد الذي كان سمتاً للمقابر فيما مضى، لكنها راحت تخلعه شيئاً فشيئاً.

كان السجّان يتبعه بحذر، بينما يفاضل عقلهُ بين الكلمات التي سينطق بها له لأول مرة. من أين سيبدأ؟ هل يميطُ اللثام عن كل شيء؟ أم يترك للتلميح مهمة كشف جانب من الحقيقة التي أخفاها عن عمد؟ كيف سيتلقى مصطفى كلماته؟ وكيف سينظر هو في وجه مصطفى بعد الآن!

أحسّ مصطفى بمن يتعقبه، لكنه لم يبد أي اهتمام.

وهو في طريقة لوادي المقابر تناول عصاً يابسة، وراح يتوكأ عليها تحاشياً لدوخة قد تباغته جراء الإنهاك الذي فتك بجسده. حين وصل مكانه المعتاد جلس على أول حجر صادفه، تذكّر أنه لم يصنع لحسّان شيئاً منذ مدة، فتطلع حوله، وتناول قطعة من الخزف بحجم راحة اليد، وشرع يحفُّ زواياها بملل. تحسّس مكان الضربة، ثم سرح بخياله بعيداً، ولم يفق من شروده، إلا والسجّان يقفُ أمامه وقد أطلّ الخوف من عينيه.

تبسّم مصطفى في وجهه، وأشار له للجلوس بقربه، لكن السجّان ودون أن يشعر بنفسه، جثم على ركبتيه.

أدرك مصطفى على الفور أن الرجل مقبل على شيء موجع، حاول النهوض لثنيه عن ذلك، لكنه أشار له بالبقاء مكانه. عاود مصطفى الجلوس، وضع العصا بقربه وراح ينظر إلى عيني الرجل الذي تردد قليلاً،

ثم في لحظة بدت قاسية عليه، فكّ اللجام عن فمه، فراحت الكلمات تعدو فوق هذا الصمت الشاسع الذي طوّق نفسه به.

قال لمصطفى وهو يتحاشى النظر في عينيه: "أعلم أني في هذه اللحظة التي أفتح فيها فمي، أكون قد كشفت نفسي أمامك، فهذه الكلمات التي أنطق بها الآن ستميط اللثام عن هويتي التي سعيت لإخفائها منذ أن لمحتك أول مرة. نعم ودون مواربة، أنا هو سجّانك. إن شئت الدقة جلاّدك كل تلك السنين. حاولت قدر استطاعتي أن أخفي عنك ذاتي، فكبّلت نفسي في هذا الصمت الكاوي، أتدري لماذا؟ لأن الصوت كان خصمي، الآن لم أعد أقوى على ذلك. ظننت أن في الموت راحتي، فعاقبني الموت بما لم أتوقعه. أنا يا سيدي رهن إشارتك، افعل بي ما تشاء. كنتُ على استعداد لأقايض حياتي كلها بكلمة غفران تريحني من عذابي، لكني اكتشفت حاجتي لتلك الكلمة متأخراً. حينها لم يكن ينفع شيء. أنا لا أقول هذا لأستدر عطفاً، أنا كما قلت لك رهن إشارتك، واستحق أي شيء تفعله بي. هذا الجسد ملك لك فافعل به ما تشاء، إياك أن تفكر في مسامحتي، ذلك سيعذبني أكثر، فأنا أدرك الآن أكثر من أي وقت مضى، أنه لا يطهّر روحي سوى وجع حقيقي، كذاك الذي طالما أذقته للآخرين".

قال هذا وأخفى وجهه بين كفيه.

في تلك اللحظات الراعفة بضوء على وشك الرحيل، سرح مصطفى بخياله مجدداً، استدعت ذاكرته تفاصيل الأمس ووجعه، سنوات طويلة مرقت أمام عينيه بلحظات، عاوده مذاق الخوف والألم، فبلع ريقه، وأغمض جفنيّه على ما تبقى من ضوء خافت، ثم غاب مفتوناً فيما سمع.

بعد صمت لم يدم طويلاً، وضع مصطفى قطعة الخزف من يده، ووقف مستنداً إلى عصاه، ثم قال للرجل الذي ما يزال جاثماً على ركبتيه: "لم أكن بحاجة للصوت للتعرف عليك، عرفتك منذ اللحظة التي عبرت بها باب المقابر، عرفتك من لمعة عينيك، من رائحتك ومن رفّة الجفن أيضاً، أتصدق لو قلت لك بأنني عرفتك حتى من صمتك، أنا يا صاحبي لم أفكر بالانتقام يوماً، لم أسع لطريقة أتلذذ بها للثأر منك.. الانتقام لا يحلُ مشكلة، الانتقام يعقدها، أما الموت فكفيل بالذهاب بها حد الغفران. لو فكرتُ بشي مما خطر ببالك، لقمت بذلك منذ اللحظة التي تبعتني فيها. لا أخفي عليك بأنني صعقت حين رأيتك أول مرة، ظننت أن الألم قدري الذي سيلاحق حتى خيالاتي، لكن حين قرأت الخوف في عينيك، أدركت على الفور أن الموت أحياناً من الحنكة بحيث يبدل الأدوار دون أن يستأذن أحد. لقد رأيتُ الندمَ في عينيك، وهذا وحده يفوق حاجتي. انهض أرجوك".

لم يصدق السجّان- الذي قال لمصطفى فيما بعد أن اسمه الذيب- ما سمع توّاً، نهض بسرعة واحتضن مصطفى بحرقة حتى كاد يوجعه، بينما

راحت دموعٌ بها الكثير من التوبة، تذرف من عينيه، لتغسل كل ما تصادف في طريقها من خطايا وآثام.

بعد أن هدأ اضطراب الذيب، وأشرق وجهه لأول مرة منذ أن وطئ هذا المكان، جلس بقرب مصطفى الذي أحس بطعم لذيذ ينتشر على لسانه، طعم أشبه بالعفو حيت يأتي دبقاً بالسكّر. طوّقه بذراعه وقال له لقد علمتُ بما قمت به حين أغمي علي من عصا ياسين، أبلغتني أم طه بالأمر.

كانت أم طه قد أسرّت لمصطفى بما أقدم عليه الذيب، فما إن هوى ياسين بالعصا على رأسه، حتى سقط مغشياً عليه، حينها ظهر لهم الذيب، وكاد يجن وهو يرى مصطفى ممداً على الأرض، فاندفع نحوهم بغضب تفتق في جسده، وأطاح بهم جميعاً.

حين تيقن من فرارهم، انحنى نحو مصطفى غير مصدق، حمله برفق إلى القبر ومدده هناك، ثم هرع لأم طه ليطلب منها العون.

شيء ما فيما قاله الذيب أراح مصطفى، بث في داخله شعوراً بأن تلك السنوات التي قضاها في السجن لم تذهب سدىً، حاول أن يقنع نفسه بأن توبةً واحدةً كالتي تاقت إليها روح الذيب، كفيلة بتعويضه خسارات تلك

السنين، لكن رغم السرور الذي بدا عليه، فإن غيمة الكدر التي ظللت المقابر، ألقت في نفسه الفزع مرة ثانية.

أحس بأن عليه أن يفعل شيئاً ما، خصوصاً حين استوقفته جمانة وهو عائد لقبره، وشكت له بانكسار الأنثى، بعضاً مما فعله لصوص المقابر بها، قالت له بأنهم التهموها بعيون شرهة، القذارة التي نالتها منهم لا حد لوصفها، أما نبشهم قبرها عدة مرات، فترك في نفسها شعوراً مريراً.

قالت أيضاً إن رجالاً لا تعرفهم أمضوا وقتاً طويلاً في تشييد أسوار غريبة حول بعض القبور، فصلوا أطراف المقابر، وعزلوا القبور بعضها عن بعض، وقبل أن تتم حديثها، وصل آخرون وقد بدا الضيق على وجوههم، وراحوا يصفون له ما يجري أمام أعينهم.

قالت له امرأة بدت الرجفة والدهشة على وجهها، بأن شهاب الدين لم يتركها بحالها، وحين حاولت الاستيضاح منه حول سبب هياجه، والغرض من قدومه المفاجئ لقبرها، أشاح هو ومن معه وجوههم عنها، وعمدوا إلى تغطية قبرها بملاءات جاءوا بها على عجل.

أما الشاعر فقال بحسرة إن هنالك من أتلف له كل قصائده، مضيفاً بشيء من التعجب: "لا أدري كيف عثروا على تلك القصائد التي نظمتها كما تعلمون بعد أن صرت جزءاً من هذا العالم، حين أضرموا فيها النيران،

شعرت بأن الحريق قد تفشى في مسام الجلد قبل أن ينال من بهجة الحروف، لكن ماذا عساي أن أفعل؟

أمّنتُ الموتَ على سرّي
فلا حفظ السرَ.. ولا حتى دافعَ عنه
لم يعد يكفي أن أُلوّحَ للموت له من بعيد
سأُحاججهُ لأرى كيفَ غَفل عن زلّةٍ أُلصقت به

إلهي
من على شرفةٍ يُظللها الزيتون والتين
من كومةِ حنطةٍ بذرتها للجوعى والمساكين
ومِن ماءٍ رشحَ من كفيّ بقدرْ
أُنصتُ لملكوتك

إلهي
لا أحتاجُ أحداً لينمّقَ لك خطاياي
أو يوهم الملائكة بأن آثامي مطليةٌ بالذهبْ
لا أريدُ من يهوي بالمقصلة على عنقي.. وهو يُغرغرُ باسمكْ
أو يدقَ بابكَ لأجلي بشيءٍ من الغطرسةْ

إلهي..
حينَ أخرجتني من نفسي
ضربتَ أمامي بحراً لأُفككَ ألغازه
لأتأمله
كلما غرفتُ منه غرفةً، صارَ البحرُ أعمق

لحظتئذٍ، رميتُ نزقي وغرقي وراءَ ظهري
ووصلتُ عتباتك مُرتجفاً
ومُبلّلاً بالكلمات".

أنصت الجميع لقصيدة بدا لهم أنها ارتجلت توّاً. حين أنهى الشاعر حديثه كان آخرون قد تحلقوا حول مصطفى ورووا أشياء مربكة حصلت لهم. لكن من بين كل ما سمع، توقف مطولاً عند أمرين اثنين: الأول حين أخبرته أم طه أن هنالك من طلب منها الابتعاد عن قبر الفضيل وحسّان، والمكوث في قبور أعدت على عجل، أما الأمر الثاني الذي عمّق إحساسه بالألم، فكان حين أخبره حسّان بحرقة وهو يلتصق به، بأن أشخاصاً لا يعرفهم سرقوا طائرته الورقية وألعابه الأخرى، أما بيادق الشطرنج، والمنحوتات الصغيرة التي كان مصطفى قد أهداها له، فتم تحطيمها والدوس عليها أمام عينيه.

شيءٌ ما تحرك في داخله، احتشدت أمامه كل تلك الأحاديث التي سمعها توّاً، رسمت له صورة لما ستؤول إليه الأمور. كان الجميع يتطلع نحوه وكأنهم ينتظرون الخطوة التي سيقدم عليها. لذا لم يكن أمامه سوى أن هدّأ قليلاً من روعهم، ثم مضى برفقة حسّان نحو الفضيل وهو يردد بينه وبين نفسه: "أي مصير بائس نساقُ إليه دون ذنب!".

على نحو محيّر، بدا أن الفضيل منصرفٌ إلى التأمل، لا يعير ما يحصل شيئاً من اهتمامه. فلم يصدر عنه ما يشير إلى امتعاضه، أو نيّته القيام بشيء ما. لكن من يعرفه جيداً يدرك أنها من المرات القليلة التي يكون فيها مضطرباً بهذه الصورة، فما أن رآه مصطفى وأمعن النظر في حاله، حتى أيقن أن ثمة أزمة حقيقة تعصف بالرجل.

حين لمح الفضيلُ مصطفى وحسّان يتجهان نحوه، تبدلت ملامحه، وفرد ذراعيه فارتمى حسّان بلهفة في حضنه. نهض بعدها وجلس مع مصطفى عند زاوية القبر، وبادره قائلاً: "أتظن أنني غافل عما يدور هنا، لطالما خشيت من يوم كهذا، لذا حاولت قدر استطاعتي أن أكبح أية رغبة مجنونة، قد تعصف بالسكينة الهشّة التي أودعها الموت في هذا المكان".

تنهد مصطفى بضيق وسأله: "كيف وصلت الأمور إذن إلى هذا الحد؟".

لم يجبه الفضيل، كبت في داخله أشياء كثيرة كان سيؤلمه النطق بها. لو كان رجلاً لا يقيم وزناً لوعوده لقال لمصطفى بأن ما أقدم عليه منذ أن وصل، قد جرّ المقابر إلى هذا المنزلق، ودّ لو باستطاعته أن يبوح له بشيء من تلك المضايقات التي طالما تعرض لها، لكنه كان يوازن بين كل هذا بشيء من الحكمة والتروي، لكن منذ أن فاحت في المقابر روائح تحمل شيئاً من بشارة الحياة؛ تلك التي أحس الفضيل بعبيرها لحظة أن لمحت عيناه

مصطفى يوم قدومه. مذّاك أدرك الفضيل في قرارة نفسه أن يوماً مثل هذا على وشك القدوم.

بقدر ما أيقظت تلك الرغبة في الحياة، التي حملها مصطفى معه، ساكني القبور من صمتهم، قضّت مضاجع الكثيرين.

هجست روح الفضيل بكل تلك الكلمات، لكنه لم يبح بأي منها، تطلع مراراً في عيني حسّان وقال: "ذات مرة سألني قادم جديد بعد أن حطّ رحاله هنا، في أي المقابر نحن؟ أجبته- وكانت تلك أول مرة يقع فيها علي سؤال كهذا- وهل يشكّلُ هذا أي فرق لديك؟ ألا نتشارك جميعنا الموت ذاته؟ منذ تلك الحادثة وأنا أدقّقُ في كل من يجتاز باب المقابر، أو لأكن أكثر دقة، أُمعن في خيارات الموت. أنا لست غافلاً عما يجري هنا، فقد كنت أعرف بدقة نوايا كثيرين ممن نتشارك معهم هذا العالم، صحيح أنني لم أمنحهم مبرراً للقيام بأمور كثيرة، لكن يبدوا أنهم عازمون على الوصول بالمقابر إلى أبعد مما تتصور. صدقني آخر ما كنت أتوقعه أن يظهر بيننا لصوص مقابر، فلكي يكون المرء على هذا القدر من البشاعة، لابد أن يكون قد أعد نفسه جيداً".

لم يع حسّان الكثير مما رمى إليه الفضيل، لكن سؤال مصطفى المذيّل بالكثير من التعجب، شده مجدداً للحديث: "لصوص في المقابر!! لم أتوقع لحظةً أن يُلطخَ الموت إلى هذا الحد!!".

رد الفضيل: "اللصوص أيضاً يموتون، كما الطغاة والسفاحين وسارقي الفرح، وحتى أنصاف الآلهة الذين ظنوا أنهم مخلدون. لكن لا يبدو أن المرء عندما يموت، يغدو أقرب إلى الملائكة. أعلم أنك ستسألني الآن ما العمل؟ في الحقيقة ليس لدي ما أقوله لك، غير أنني سأكون خلفك في أي شيء تقدم عليه".

أربكه رد الفضيل، وضعه في مواجهة مع نفسه قبل أن يكون في مواجهة مع أي أحد آخر.

عند تلك اللحظة شيء ما عاود الاستيقاظ في داخله، برقت أمام عينيه تلك الكلمات التي لم يكن يرى غيرها على باب الزنزانة، ناوشته تلك المسرّات المؤجلة التي طالما استرخت على قضبان السجن، أما عجوزةُ التي ظلت وفية لزيارته، والتي ما تزال كلماتها تحوم في سقف الزنزانة، فكان وجهها الموشوم بالكثير من الطمأنينة، يذهب بالأسئلة إلى عمقها.

لم يكن بحاجة لأكثر من تلك الكلمات التي سمعها من الفضيل، ليمضي قدماً فيما عقد العزم عليه.

***

الفصل الرابع عشر

عند باب المقابر الموارب، الذي علت زواياهُ طحالب رطبة، مال أغلبها للأخضر الضارب للسواد، وقفت فدوى تنظر للأفق الباهت بشيء من الاندهاش.

على وقع خطاها الحذرة، وثيابها المبللة التي تفوحُ منها رائحة البحر، راحت نهايةٌ ما، تكتب على مهل. فخلافاً لما جرت عليه العادة، لم يكن ثمة أحد في انتظارها، عبرتْ مسرعة وكأنها تعرف أروقة المقابر جيداً. مشت خطوات عديدة، إلى أن وصلت حلقةً ضيقةً تضم عدداً من ساكني هذا العالم المربك. ترددت قليلاً حين رأتهم، ثم اندست بينهم بخفة، وكأنها أرادت لهؤلاء الذين لا يعلمون شيئاً عنها، أن يشهدوا آخر فصل من فصول حكايتها.

لم يكن يبدو عليها الحزن. كانت السعادةُ تكلّل وجهها الذي خلع على ما يبدو شيئاً من حزن قديم ارتداه طويلاً. لو سألها أحدٌ عن سرّ تلك الراحة التي بدت عليها، لما ترددت لحظةً في إخباره؛ ستقول له بكل تأكيد

بأنها سعت للموت برجليها. لم يبحث عنها أو يتحايل عليها، بقدر ما أغوته وتقربت منه.

كان آخر عهدها بالحياة، تلك الدقائق القليلة التي أمضتها عند الحافة الصخرية للبحر، قبل أن تلقي بنفسها صوبه. كانت تعلم أنها تورّطُ البحر في أمر كهذا، لكن رغم ذلك، شيءٌ ما في داخلها كان يخبرها بأن هذا الشاسع، سيرحبُ بامرأة مثلها أشقتها الحياة كثيراً، وكل ما تصبو إليه الآن أن يذيب في عمقه، ما تبقى لها من عذابات.

حين ارتطم جسدها المنهك بسطح الماء، تلقفها البحر بشيء من الشفقة، ثم أوصلها بأمانة إلى حيث يجلس الموت منتظراً قدومها. في تلك المسافة التي شكّلت فاصلاً زمنياً بين حياتين، وبينما يهوي جسدها في الفراغ الهشّ، الذي يشبه في صمته وغطرسته تلك السنوات التي عاشتها، أسلمت فدوى أمرها للموت، ملبيةً نداءه الفاتن. ربما لم تتحسر في تلك الثواني القليلة على شيء، قدر حسرتها على رحيل تم دون أن تفشي سرّه لامرأة تعرفت عليها قرب البحر، امرأةٌ قاسمتها لفترة طويلة، الحزنَ ذاته.

لم تخبر أحداً بحكايتها، لكن حين أسرّت لها تلك المرأة التي كثيراً ما وجدتها تبكي بحرقة عند حافة البحر، حين أسرّت لها بشيء من حزنها، أيقنت فدوى أن الخلاص يلوح في الأفق.

لحظة أن طواها البحر بين أمواجه، فاحت في المقابر رائحة طرية مشبعة بالملح، وسُمعت في الأرجاء خشخشةُ أصداف لم يعرف لها مصدر.

جلست فدوى تنصت لما يدور في المقابر، وحين انفضّ الجمع على وقع اقتراب خطى تدق الأرض بصلابة، نهضت كغيرها بخفة، وراحت تتسكعُ في المكان الذي شعرت تجاهه بشيء من الألفة. لكن رغم ذلك، ثقل الغبار الذي انتشر في الأرجاء، والعتمة الكثيبة التي لم تألفها من قبل، وكذلك الوجوه القلقة التي كانت تمرُّ مسرعة من أمامها، أوحت لها بأن ثمة شيء ما يدور هنا.

بحثت لنفسها عن مكان تأوي إليه، دارت على عدد مهمل من القبور، ثم اتخذت لنفسها واحداً متطرفاً. طوال تلك الأثناء لم يلتفت لوجودها أحد، لم يرشدوها لقبر بعينه كما اعتادوا أن يفعلوا مع كل قادم جديد. حين هيأت مكانها الجديد واسترخت في جوفه، سرت في روحها رعشة كانت كفيلة بنقلها بعيداً عن ذاك العالم الذي فارقته بملء إرادتها.

هذا ذروة ما كانت تحتاج إليه.

أمضت وقتاً طويلاً في العتمة، وبعد أن طفحت روحها بالرجاء وطلب الشفاعة، وامتلأ قلبها سكينةً ظلت سنوات طويلة تبحث عنها، مضت تبحث عن آخرين يشاطرونها أحلاماً عزّ تحقيقها. وبغريزة الأنثى التي

كادت تفقدها في الآونة الأخيرة، أحسّت بأن عالم الموت يخبئ لها رحمةً لم تستطع عوالم أخرى أن تمنحها إياها.

كان قبر جمانة أول قبر وصلته، مشت نحوه بحذر إلى أن اقتربت من عتبته المهدمة، حين أحسّت بها جمانة رفعت رأسها، ثم ساورها شعور بالراحة حين أيقنت أن القادم نحوها امرأةٌ في وجهها بقايا من نضارة الحياة، كانت رائحة البحر التي طوّقت المكان وسبقت قدومها، قد ألقت شيئاً من الألفة بين الاثنتين، سُرّت جمانة لرؤيتها، أجلستها بقربها، وتبادلت معها القليل من الكلام، ثم راحت تردّ على أسئلتها التي تشبه تلك الأسئلة التي اعتاد القادمون الجدد البحث عن إجابات لها.

شعرت جمانة بقرب تلك المرأة منها، فراحت تحكي لها بعضاً مما يدور في هذا العالم، وكأنها هي الأخرى كانت تنتظر بفارغ الصبر، قدوم امرأة تجيد الإصغاء.

قصّت عليها جمانة مرارة أيامها الأولى، والحياة المؤجلة التي تركتها خلفها وظلت حتى فترة قريبة، تؤمّل النفس بالرجوع إليها، أخبرتها كيف وجدت مع الموت راحة لم تألفها في ذاك العالم الفاني، وكيف باتت أكثر قرباً من ذاتها، أقسمت لها بأن ذاك العالم لم يعد اليوم يغريها.

حكت لها عن كثيرين خفّفوا عنها طعم الموت اللاذع، لحظة أن وجدت نفسها وسط عتمة مفرطة.

باحت لها بالقصائد التي كتبها شاعر المقابر لأجلها، وقرأت لها سرّاً بعضاً منها، أسهبت في الحديث عن الفضيل وحسّان ومصطفى وبركات، وآخرين أحاطوها بالكثير من المحبة، ونشلوها من مزاج سيئ، وأطوار اكتئاب وجدت نفسها تنزلق إليها. قالت لها بأنها كثيراً ما ظنّت أن المقابر ليست أكثر من متاهة تستدرج القادمين من زيف الجنازات، إلى أن صارت تراها مؤخراً بعيون جديدة، تبلّلها الطمأنينة والرجاء.

أخبرتها عمّا فعله مصطفى منذ أن وصل، كيف نفض الغبار عن القبور وعن وجوه ساكنيها، وكيف يندر أن يقوم شخصٌ بمثل ما قام به؛ حكت لها عن الأشياء العديدة التي راحت تزهر في حلكة المقابر، والفراشات التي شوهدت مؤخراً، وهي تطير بحرية وتترك شيئاً من ألوانها المزركشة فوق كل قبر تصفق بأجنحتها عليه.

بينما تصغي فدوى باهتمام لحديث جمانة المتدفق، لاح في الأفق خيالُ رجل يتقدم على مهل، كان يضع يده بيد صغير يخطو بقربه، لم تكترث فدوى كثيراً لهذا، لكن حين اتضحت لها ملامح القادمَين، فركت عينيها باهتمام، ثم قفزت دون أن تشعر بنفسها وصرخت باندهاش: "حسّان!!".

جاء وقع المفاجأة صاعقاً على مصطفى. من هذه التي تنادي حسّاناً باسمه؟ من تكون ومن أين تعرفه؟ ثم كيف تقفز لاحتضانه بهذه الطريقة دون أن يبدي هو أدنى معرفة بها؟ لم يكن وقع الصدمة على حسّان بأقل من هذا، فقد التصق بمصطفى دون أن يشعر، بعد أن دبّ الخوف في نفسه من هذا الموقف الذي لم يختبر مثله من قبل. صمت مصطفى برهةً، وتدارك الأمر بسرعة، فرحّب بالمرأة التي يراها لأول مرة، ثم طلب منها بأدب جمّ، مرافقته لوادي المقابر، تاركاً حسّاناً برفقة جمانة.

كانت الأسئلةُ تحتشد في رأسه، لكنه استطاع ضبط فضول بلغ أوجه. حين وصل وادي المقابر، طلب منها الجلوس، ثم عاجلها بسؤال لم يعد يقوى على كبته: "كيف تعرفين حسّاناً كل هذه المعرفة، وهو لا يعلم من تكونين؟".

ندت عن فدوى آهةٌ مترعةٌ بالحسرة، نظرت لهذا الرجل الذي بدت اللهفة جليةً على وجهه، وقالت له: "مَن يبدأ بالخاتمة، تفوتهُ دون أدنى شك الكثير من التفاصيل. على كل حال عرفتُ هذا الصغير من صورة كانت تحملها والدته، وتبكي عليها كل مساء عند حافة البحر، كيف لي أن أتوه عن وجهه، فقد حفر الدمعُ الذي ذرفته تلك المرأة، صورتهُ في وجداني".

كان شيئاً من صوت البحر في صوتها، شعرها الذي لا يزالُ يقطر ماءً مالحاً، أشاع في وادي المقابر رائحة فاتنة. كانت تظنُّ أنها ستسرد شيئاً من قصتها على هذا الرجل الذي جذب اهتمامها بحضوره، لكن من حيث لا تدري، وجدت نفسها تسوق له قصةً أخرى كشفتها لها الحياة بمحض الصدفة.

لم يكن مصطفى يتوقع أن يأتي له الموت بحكاية حسّان، فحين شرعت فدوى في الحديث، كانت صورٌ من عالم آخر تتسابق لتصطف أمام عينيه. قالت له بأن هَمَّ النساء يقربهن من بعضهن البعض، أما الحزن فيضفي على قصصهن شيئاً من التشابه. لذلك فهي لن تنسى يوماً تلك المرأة التي التقتها مراراً عند حافة البحر، كان بها حزنُ الأرض برمته، وجهها الذاوي، والانكسار الذي شرخ روحها، لا يمكن لشيء أن يقوى على ترميمه.

أخبرته كيف تعرّفت عليها، وكيف قرأت الحزن في ثنايا قصتها؛ حزنٌ لا يختلف كثيراً ذاك الذي طالما تعقّب فدوى وقرصها بلؤم. قالت له بأن تلك المرأة التي توشكُ أن تفقد عقلها، وتنتابها هلوسات تمضي بها لعوالم بعيدة، ظلت على الدوام، تحمل بحرقة صورة حسّان الذي خطفهُ الموت وهو عائدٌ من المدرسة ذات يوم.

مع كل كلمة كانت تخرج من فمها، كان شيء غامض يوجعهُ في الداخل.

بعد أن أتمت حديثها، قال لها: "تعالي معي، أريدك أن تقابلي الفضيل.. سيكون حسّان عنده ولاشك". حين تحركا، اختبأ على الفور عددٌ من الرجال كانوا يرصدون ما يدور بينهما. أصابه تصرفهم هذا بالهياج، أشعل في داخله شيئاً أقرب إلى الفتيل، لكن مع ذلك لم يبد لفدوى أي شيء. سار بقربها إلى أن وصلا قبر الفضيل، هناك دُهش حين رأى عدداً كبيراً ممن ضاقوا ذرعاً بما يجري، وما إن اقترب منهم حتى هرعوا إليه، وفي عيونهم شيءٌ من خلاص منشود.

في تلك اللحظة التي التفوا فيها حوله، أيقن بما لا يدع مجالاً للشك، أن نداءً لا رجعة عنه قد دقّت ساعته.

سلّم على الفضيل بحرارة، وعرّف الجميع على هذه القادمة الجديدة التي صارت الآن واحدةً منهم، وبعد أن جال ببصره عليهم، انحنى ليحمل حسّاناً على كتفيه، وحين رفعه عالياً، أخذ نفساً عميقاً وقال بصوت مشبع بالسكينة: "ذات مرة قلتُ في حياتي لا، ودفعتُ لأجلها ثمناً باهضاً، والآن سأقولها مرةً أخرى، حتى لو سدّدتُ ثمنها للموت".

قال هذا ومضى بهم نحو مواجهة ستطفئ دون شك، شيئاً من عطش المقابر. كان مصطفى يتقدم بثقة، بينما يلمحُ على جانبيه، الفضيل وبركات وأم طه وجمانة وشاعر المقابر وغيرهم الكثير. كانوا كلما مروا بقبر ما، نهض مَن بالقبر من رقدته، بعد أن أزهرت بتلات غضة في زوايا روحه.

في لحظة أعقبت اجتيازهم وادي المقابر، وبينما يلوح في السماء طيفٌ تَعشّقَ بألوان فاتنة لم يألفوها من قبل، اقتربت منه فدوى وأسرّت له بصوت خفيض: "بقي شيءٌ أخير نسيتُ أن أطلعك عليه، أتعلم أكثر ما أوجعني في قصة تلك المرأة التي حدثتك عنها؟ إنه بدون شكّ هذا المسكين الذي تحملهُ الآن على كتفيك، فقد وُلِدَ وكَبر وخَطفَهُ الموت، دون أن يرى والده. مسكينةٌ أماني، أيُّ امرأة أنت لتحتملي كل هذا القدر من العذاب!".

- انتهت -

زياد أحمد محافظة

روائي أردني مقيم بأبوظبي. يحمل درجة الماجستير في الإدارة العامة، كتب في العديد من القضايا الفكرية والأدبية، كما نظّم وشارك في كثير من المؤتمرات، والندوات وحلقات النقاش، التي تناولت قضايا ثقافية وأدبية واستراتيجية متنوعة. يحمل عضوية رابطة الكتّاب الأردنيين، وعضوية منتسبة لاتحاد كتّاب وأدباء الإمارات. صدرت له الأعمال الأدبية التالية:

- رواية: "بالأمس.. كنت هناك". دار الفارابي للنشر- بيروت.
- رواية: "يوم خذلتني الفراشات". دار الفارابي للنشر- بيروت. اختيرت الرواية للقائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب لعام 2012.
- مجموعة قصصية: "أبي لا يجيد حراسة القصور". دار فضاءات للنشر- عمّان.
- رواية: "نزلاء العتمة". دار فضاءات للنشر- عمّان.
- رواية: "أنا وجدّي وأفيرام". دار فضاءات للنشر- عمّان.

***

الفهرس

- الفصل الأول..... 5
- الفصل الثاني..... 23
- الفصل الثالث..... 39
- الفصل الرابع..... 55
- الفصل الخامس..... 75
- الفصل السادس..... 85
- الفصل السابع..... 95
- الفصل الثامن..... 111
- الفصل التاسع..... 123
- الفصل العاشر..... 137
- الفصل الحادي عشر..... 147
- الفصل الثاني عشر..... 159
- الفصل الثالث عشر..... 169
- الفصل الرابع عشر..... 185

ما يمنح هذه الرواية صفة الإبداع، أنها اجتهدت في ابتكار فضاء «غريب» واخترقت مجهولَ عوالمه بالخيال، ليصير موضوعاً للإبداع والتفكير والتأويل وطرح الأسئلة الجديدة.

محمد معتصم

كتاب: قراءة الرواية وكتابة الذات
دراسات في تجريب الرواية العربية.

استطاع الراوي أن يصل بنا إلى تلك الأعماق السحيقة في النفس الإنسانية بسلاسة، مستفيدا من الموت كفكرة وجودية ذات امتداد غامض يسمح للخيال أن يطرق أبواب السرد بهدوء.

الدكتور محمد المحفلي

القدس العربي.

من اللافت للنظر حرص الكاتب على تنقيح سردِهِ العجائبي، فقد عمد إلى مراعاة كون الشخوص جميعاً من الموتى. وأن الوقائع التي تجري، وإن شابهت ما يجري في عالم الواقع، لكنها هنا تجري في مستقرٍّ كل من فيه من الأموات.

الدكتور إبراهيم خليل

الدستور الثقافي.

تمضي الرواية نحو التصدي لقوى الظلام والقهر تحت أي مسمى كانت. وتسعى بلغة روائية شفافة وبناء مشهدي محكم، إلى خلق مقاربة تدريجية تتيح فهماً أعمق لتلك المنطقة الغامضة بين الحياة والموت.

جهاد هديب

الاتحاد الإماراتية.

في الرواية عالم جديد لا نجده في الكثير من الأعمال الأدبية، عالم سحري وخيالي إلى أبعد الحدود، فيه من الغرائبية الكثير، حيث الوصف والأجواء الفانتازية المشهدية في العالم الآخر الذي نرسم له نحن في مخيلتنا صورة غامضة مليئة بالخوف.

ميدل إيست أونلاين

تقوم الرواية على فرض الجدلية القائمة بين ثنائية الموت والحياة، حيث المفارقة هي صلة وصل بين حياة لا تعطي ما تملك، وموت أعطى ما لم تعطه الحياة.

الدكتور نزار قبيلات

الرأي الثقافي.

مكتبة نوميديا 96
Telegram@ Numidia_Library

Drawing cover by: guy denning

9 789957 305093

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan • dar_fadaat@yahoo.com